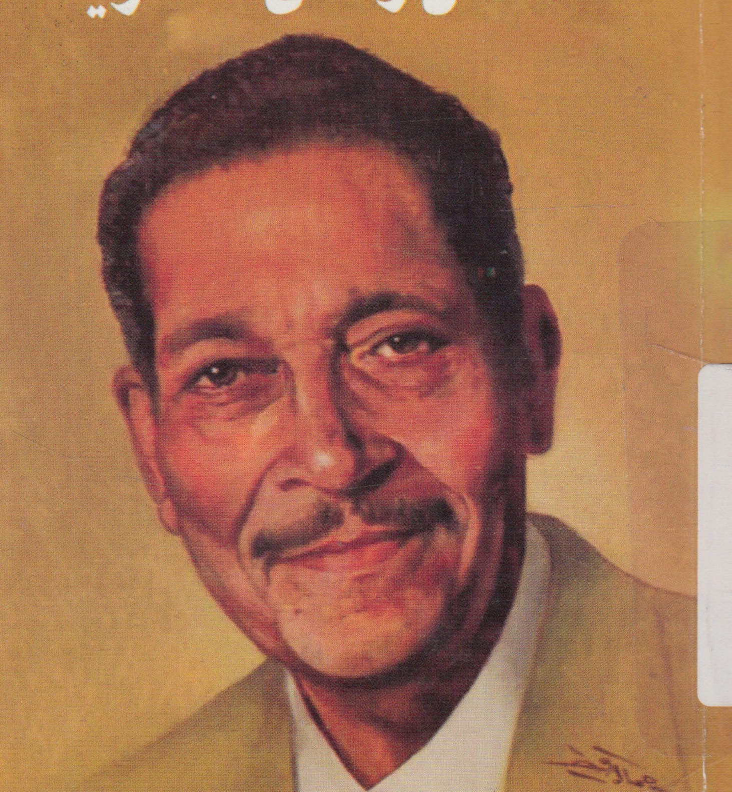
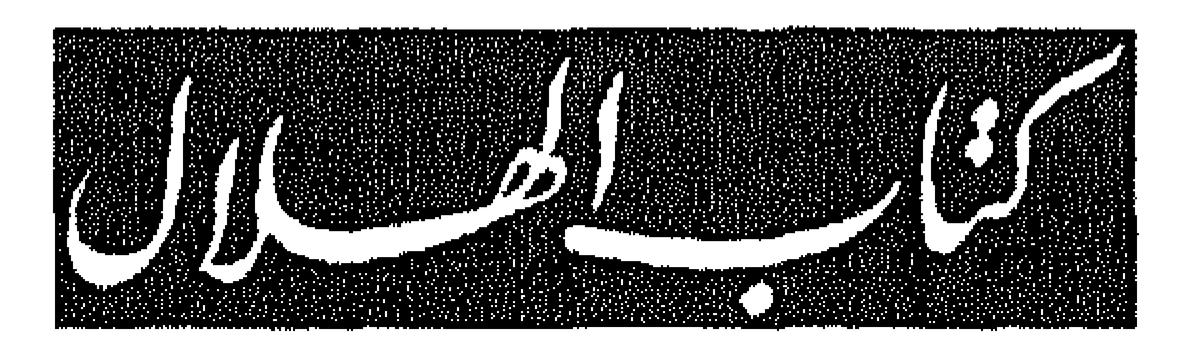
كتاب الهلال

يوسف الشارونى

لقطات من رحلتى الفكرية





سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
حلمى النمنم

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

المستشار الفنى
محمود الشيخ

مدير التحرير
أحمد شامخ

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج. م. ع.
تلكس: Telex 92703 hilal u n
فاكس: FAX: 3625469

الغلاف
محمد أبوطالب

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٧٢جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٥ دولاراً - أوربا وأسيا وأفريقيا ٤٠ دولاراً - أمريكا وكندا والهند٤٥ دولاراً -
باقى دول العالم ٧٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول/يونيو ١٩٥١

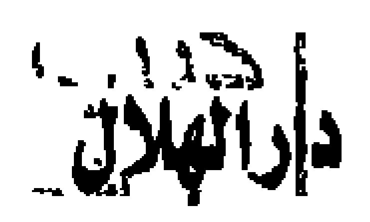
البريد الإلكترونى: helalmag@yahoo.com

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٦٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا البحرين ١,٢ دينار- قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٣,٥ جنيه

يوسف الشارونى

لقطات من رحلتى الفكرية



مستشار التحرير:

محمد رضوان

الوجود خطيئة

١ - تمهيد : مكانة هذه النظرة - وضع كل من العلم والفن والفلسفة - اصطباغ هذه النظرة بالذاتية .

٢ - الأصول الأسطورية لهذه النظرة والقصتان الشرقيتان السامية (والبرهمية .) قصة خلق العالم الفكرى عند الإغريق .

٣ - تعريف الخطيئة وصفاتها ، تداخل المتضادات : اللذة والآلم - الملال - اللاإرادة أو إرادة الخطيئة .

٤ - خطيئة الوعى وبعض صورها : الحب ، الصداقة ، التعبير الفنى .

٥ - حياة القلق : محاولات الخلاص لدى الخيام والمعرى وبايرون وشوبنهور - الدعوة إلى حياة القلق .

-١-

قبل أن نعرض هذه النظرة إلى الوجود يجب أن نتنبه إلى أنها نظرة إنسانية، معنى هذا أننا نقرر بأن باديء ذي بدء أنها ليست نظرة علمية على الإطلاق ، فنحن نعلم أن الخطيئة معنى إنساني لا وجود له في الواقع الخارجي المستقل عن عالم الإنسان. فالخطيئة وما تحمله معاً من معاني الشر والخير ، إن هي إلا حكم إنساني حيث ينعدم بانعدام الإنسان، وهذا معنى وصفنا لها بأنها نظرة إنسانية أي تنتسب إلى الإنسان .

ولسنا نود أن نتعرض هنا إلى مبلغ اصطباغ هذه النظرة بالصبغة الأدبية ، بل كل ما نستطيع أن نقوله بإيجاز إن الفن في رأينا – بما فيه الأدب – إبداع وهو ثمرة التفاعل بين الذات والعالم الخارجي ، فهو يثير – على سبيل المثال– انفعالي الحزن والفرح ، وانفعالا الحزن والفرح انفعالان فطريان في النفس الإنسانية لا يكونهما مجتمع ولا وضع مادي وكل ما يفعله المجتمع أو الأوضاع المادية هو أنها تكيف الطرق التي تتأثر بها هذه الانفعالات ، وهذه الطرق أو الوسائل تتغير من زمن إلى آخر ، ومن مجتمع إلى مجتمع آخر ، فالأسلوب الذي كان يعبّر به عن الحب في الصحراء العربية غير الأسلوب الذي يُعبَّر به في المدن الحضارية

الحديثة ، والطريقة التى كانت تعبّر عن الحب فى العصر الإقطاعى عصر الفروسية غير الطريقة التى تعبر عن الحب فى العصر الصناعى الحديث ، والتى كانت وسيلتها الرسائل الغرامية غير التى وسيلتها - ما جّد باسم - شبكة الاتصالات، بينما عاطفة الحب موجودة بوجود الإنسانية - أما العلم فهو محاولة العقل الإنسانى لفهم الوجود الخارجى فهما موضوعياً من خلال قوالب تلقّى العقل الخاصة به . إن الوردة التى يراها الفنان حمراء فى لون الشفق ليست أكثر من مجموعة من الإلكترونات والبروتينات فى نظر العالِم ، معنى هذا أن تقييم الفنون نسبىّ طبقاً لثقافة المتلقى وما يألفه من قيم جمالية ، فمتذوق الموسيقى الشرقية - على سبيل المثال - عادة لا يألف الموسيقى الغربية الكلاسيكية ، والعكس بالعكس، واللوحة الفنية الواحدة يتلقاها كل متلق من خلال ثقافته وخبراته السابقة، فقد

تساوى مئات الآلوف من الجنيهات عند شخص ، ولا يعيرها اهتماماً شخص آخر. فالفن كالقطار الذى يصل بكل راكب إلى المحطة التى يألفها ، أما العلم فهو مصوغ فى لغة دقيقة لا تحتمل تأويلا منّى يختلف عن تأويلك ، إنما هو قانون عام يصدق معى ومعك ، فتذوق الفن نسبى بينما كلية العلم موضوعية ، من هنا يختلف الفن جمالا وقبحا ، والعلم صحة

وخطأ . فإذا كنا نفهم الوجود من خلال ذواتنا فنحن فنانون ، وإذا كنا تغلّب النزعة الموضوعية ونفهم الوجود من خلال العالم الخارجي عن طريق حواسنا ومن خلال أدواتنا المتطورة فنحن علماء .

ومع ذلك فليس من الممكن أن تكون هناك نظرة ذاتية خالصة أو موضوعية خالصة، ذلك لأنه سواء الفن أو العلم ليسا إلا نتيجة التفاعل بين الإنسان وعالمه الخارجي، وهنا نستطيع أن ندرك مغزى الثورة الكوبرنيكية (١٤٧٣-١٥٤٣) التي هي اكتشاف أن التفاعل من أجل المعرفة لا يتم بين موضوعات خالصة، بل هناك ذات وموضوع، ومن هنا فإن النجوم تبدو من أرضنا على خلاف ما هي من أي نجم أو كوكب آخر. وهذا ما أعلنه عمانوئيل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) حين نقل مجال هذه الثورة الكوبرنيكية إلى نظرية المعرفة فقال: إن فهمنا للعالم الخارجي عن طريق عقلنا إن هو إلا فهم من نوع خاص قد يخالف فهمنا لهذا العالم عن طريق وسيلة أخرى غير العقل إذا وجدت. فالثورة الكوبرنيكية ما هي - بتعبير آخر - إلا ثورة على الفرض القائل بأن المعرفة تتم عن طريق رؤية موضوعية خالصة، بل هي نتيجة ذات تتمثل هذا الوجود الخارجي ثم تحيله إلى تصور معين من خلال قوالب خاصة بها . وهنا أيضا نستطيع أن ندرك قيمة

الثورة الأينشتية (١٨٧٤-١٩٥٩)، فرغم أن كوبرنيك اكتشف أن التفاعل إنما يتم بين ذات وموضوع إلا أن رؤيته كانت مكانية أكثر منها زمانية؛ إذ لم يُعِر كبير اهتمام إلى ما تحدثه حركة الأرض المستمرة وحركة الكواكب حولها من تأثير على هذا التفاعل في الزمان، فضلاً عن أن البيئة الزراعية الإقطاعية التي ظلت مسيطرة حتى الثورة الأوروبية الصناعية كانت ترى في الزمان عاملا من عوامل التكرار أكثر مما هو عامل من عوامل التغيير. وفي القرن التاسع عشر عندما بلغ الإنتاج الصناعي الرأسمالي في العالم الغربي نضوجه ظهر هيجل (١٧٧٠-١٨٣١) وأتباعه بعدما مهد له نفر غير قليل من صغار الفلاسفة الألمان وغير الألمان، وأحلّ الديالكتيك محل المنطق الأرسطي. وجوهر الخلاف بين المنطقين هو الدور الذي يلعبه الزمان في المنطق الهيجلي وانعدامه في المنطق الأرسطي - فقانون العلية عند أرسطو يقول إن لكل معلول علة، وعند هيجل أن المعلول يصبح بدوره في الزمن علة فسكان الواحة يقيمون فيها لما فيها من ماء وربما خضرة، هي العلة وإقامتهم المعلول، فإذا زرعوا وقاموا بتربية المواشي والطيور أصبح المعلول علة، وقانون عدم التناقض عند أرسطو أن الشيء لا يمكن أن يكون هو هو وليس هو في الآن الواحد، أما عند هيجل فإنه يمكن أن يكون هو هو وليس هو في الزمن الطويل، كالطفل الذي يصبح رجلا.

وفي أوائل القرن العشرين جاء أينشتين وكانت ثورته على كلّ من كوبرنيك ونيوتن، وعلى كل الرياضيات السابقة حين أدخل فى حسابه عنصر الزمان، فقال إن رؤيتنا للنجم اليوم تختلف عن رؤيتنا له من قبل ومن بعد لا لأن النجم هو الذى يتحرك فحسب بل لأن عالمنا أيضا يتحرك. ويلاحظ أنه يمكن تطبيق هذه الثورة الأينشية فى المجال الفلسفي لكن لا مجال الآن لذلك.

ما يهمنا الآن هو آن نعرف آن العلم هو المعرفة التى تحاول أن تفهم الوجود الخارجي من خلال قوانين يكتشفها العقل، وهنا نلاحظ أن قوانين العلم المصوغة في صيغ رياضية – والتى هى الدرجة العليا التى يصبو إليها كل علْم – لا وجود لها خارج الذهن البشرى،وهذا ينبهنا إلى ضرورة تدخُّل الذات الإنسانية فى فهم العالم الخارجى فهما موضوعيا. إن التعميم والتجريد عمليتان عقليتان تماما، لا دخل للعاطفة فيهما،فلا يوجد فى العالم الخارجى سوى حركات نجمعها نحن تحت قانون عام. أما إذا قلنا إن الطبيعة فرحة أو كئيبة فإننا نكون هنا بإزاء إدراك ذاتى للعالم الخارجي. وقد عبَّر عن هذه الذاتية الشاعر الفرنسى جوبير حين قال: أغمض عينيك لتر Fermez vos yeux et vous verrez، وعبّر عنها ميخائيل نعيمة فى ديوانه «همس

الجفون» إذ يقول " أغمض جفونك تبصر" لهذا أمكن ليبتهوفن (١٧٧٠-١٨٢٨) أن يؤلف أروع سيمفونياته وهو أصم : لقد أغلق أذنيه فسمع .

فإذا حاولنا أن نحدد للفسلفة مكانها، نرى أنها تعبِّر عن أوج الصراع بين الذاتية والموضوعية، فهى تبدأ بأسئلة ذاتية خالصة محاولة أن تجيب عنها إجابة موضوعية خالصة ، فعلى سبيل المثال فكرة العدم فكرة إنسانية بحتة لا وجود لها فى الواقع الخارجي لأنك تناقض نفسك إذا قلت إن العدم له وجود موضوعى، ومع ذلك فالفسلفة كثيرا ما حدثتنا عن العدم وكأن له وجودا موضوعيا. كذلك الأمر فى الحقيقة التى تبحث عنها الفلسفة، فهى ليست سوى فهم عقلى محض مستمد من جملة وقائع فى العالم الخارجى. وإذا كان العلم يستطيع أن يجيب إجابات دقيقة إلى حد بعيد عن العلة القريبة والغاية القريبة، كما فى كسوف الشمس وخسوف القمر، فهو يعرفنا بأسباب هذا الكسوف والخسوف - وهو مجموعة العلاقات والنسب والحركات - كما يستطيع أن يتنبأ كذلك بموعد حدوثه، إلا أن مهمة العلم تنتهى عند هذا الحد لتبدأ مهمة الفلسفة متسائلة عن العلة البعيدة والغاية البعيدة، لماذا كان الكسوف والخسوف، وأى هدف وراء هذه العملية المتكررة ملايين المرات، وهو إسقاط إنسانى بحت حيث

لا يتحرك الإنسان إلا بسبب دافع أو غاية، ومع ذلك فنحن نحاول الإجابة عنه كما لو كانت هناك حقا علة بعيدة وغاية بعيدة . وعلة ذلك أننا نحاول إسقاط إنسانيتنا على الوجود، فنتصوره كائنا مثلنا يتحرك بسبب ويهدف نحو غاية: وهذا واضح فى التفكير الأسطورى عندما كان الإنسان يعتقد أن مكونات الكون أشبه بالكائنات الإنسانية، وقد حلت محلها فى الفلسفة الإغريقية فكرة العلة الأولى والغاية الأخيرة . فلما أخذ الفكر الإنسانى يتواضع قليلا أدرك أن فكرة وجود غاية نهائية للكون يسعى إليها فى حركته نحوها ليست سوى نتيجة لإسقاط إنسانيته على الوجود، ونتيجة للوجود الإنسانى الذى يتحرك دائما حركة إرادية نحو هدف معين فى عالم مادى يتحرك طبقا لقوانين رياضية لا تمت إلى الإرادة والغائية بسبب.

فقديما ظن الفيلسوف الإغريقى أنبادوقليس (حوالى ٤٥٠ ق.م) أن ما يجمع بين العناصر ويفرقها هو الحب والكراهية ، ونحن نعلم الآن أن الحب والكراهية إحساسان إنسانيان، ومع ذلك فقد امتد إلى أبعد من النفس الإنسانية وصبغ بهما الوجود كله، وكان يتحدث عنهما وكأنما لهما وجود موضوعي. وقديما أيضا قسم أفلاطون (٤٢٨-٣٤٧ ق.م) المجتمع الإنسانى تبعا لتقسيمه النفس الإنسانية إلى شهوية

(الطبقة العاملة) وغضبية (الجيش) وعقلية (الحكام)، بل ما مثاليته إلا المحاولة الإنسانية الأولى لوضع الذات الإنسانية وضعاً موضوعياً خالصاً مستقلاً عنا، فللمُثُل عنده الوجود الموضوعي الأول أما هذا العالم فليس إلا انعكاساً لعالم المثل!. وليس من الضروري أن نورد أسماء كل الفلاسفة الذين لفلسفاتهم صلة بهذا الموضوع لنبرهن على صحة رأينا، بل يكفي أن نقرر أن موضوعات الميتافيزيقا التي كان يثيرها الفلاسفة حتى بدايات القرن العشرين إن هي إلا أسئلة أثارتها الحياة الإنسانية نفسها، ومع ذلك تحاول أن تجيب عليها كما لو كان لها وجود مستقل عنا، أما الفن فهو يقنع بالتعبير الوجداني الذاتي.

هنا ندرك أن المذاهب الفلسفية نفسها قد اختلفت قربا وبعدا عن كلٍّ من الفن والعلم. فمن المذاهب ما تغلب عليه النزعة الذاتية فيصبح أقرب إلى الأدب، ولعل خير مثال لذلك في العصور الحديثة هو نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) فآراؤه عن السوبرمان ليست إلا رؤية إنسانية نستطيع أن نلمس فيها النزعة الأدبية، بينما هناك مذاهب أخرى تغلب عليها النزعة العلمية كالمادية التاريخية عند كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣). حيث نرى أنه نادى بإلغاء الميتافيزيقا ولم يبحث إلا عن العلة القريبة والغاية القريبة، فاستخلص القوانين التي تنقل المجتمع

من مرحلة إلى أخرى وتنبأ تبعا لذلك بنظام المجتمع المقبل طبقا لرؤيته الفلسفية للتاريخ البشرى، أما التساؤل عن العلة البعيدة والغاية البعيدة لهذا التطور فقد أعلن أنه تساؤل لا معنى له، وأن مجال الفلسفة يجب أن يقتصر على البحث فى قوانين الفكر والحركة أى الديالكتيك. لكن هناك مذاهب لم تغلب أحد الجانبين فبلغت الفلسفة لديها أوج قلقها الرائع الخصب على نحوما شهده تاريخ الفلسفة عند المعلم الأول أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) ، وكما شهدته العصور الحديثة لدى الفيلسوف الألمانى عمانوئيل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) على سبيل المثال.

وعلى هذا الضوء - وبعد هذه المقدمة التى قد يرى البعض أنها ابتعدت عن جو البحث.نستطيع أن نحدد فكرة "الوجود خطيئة"، فهى أولا نظرة أقرب إلى الذاتية منها إلى الموضوعية، ونستطيع هنا أن نستعير الوصف الذى وصف به نيتشه نظرية شوبنهور (١٧٨٨-١٨٦٠) فى الوجود كخطيئة حين قال فى كتابه " الفلسفة الإغريقية المبكرة" إن من سمع - مثل شو بنهور- من أعالى النسمات الهندية الكلمة المقدسة عن القيمة الأخلاقية للعالم، سيكون من العسير عليه ألا يصطنع تشبيها إنسانيا، وأن يعمم النظرة الأسيانة فى نطاق الحياة الإنسانية أولا ثم يمتد فيطبقها على أنها صيغة عامة للوجود

قد لا تكون منطقية دقيقة، لكنها على أية حال إنسانية جداً".
كذلك ربما بدا للبعض أن يلمح فى مثل هذه النظرة للوجود انعكاسا لقلق حضارى وعدم استقرار اقتصادى اجتماعى.

كذلك سيلاحظ فى نظرتنا هنا، أنه رغم الأسى الذى يصبغ هذه النظرة فإن التعبير بقولنا "الوجود خطيئة" هو أبعد ما يكون عن التشاؤم. فكما سنرى فى نهاية البحث أننا نفصل كل الفصل هنا بين الخطيئة ومعنى الشر، حيث إن الخطيئة أصبحت مقرونة بالشر أو ربما مرادفة فى الروح السامية والآرية الهندية، بينما هى فى الروح الإغريقية لا تعنى أكثر من الحياة فى أعمق صورها على نحو ما سنرى.

ليس من العسير علينا أن نعثر على الأصول الأولى لهذه النظرة، ونعنى بها قصص الخلْق التى عبَّرت عن عقائد بعض الجماعات البشرية حول نظرتها إلى الوجود كخطيئة. ولن نختار إلا ثلاث قصص - أو قصتين فى الواقع - إحداهما من الشرق والأخرى من الغرب، عَبَّرتا طويلا عن نظرة الإنسانية إلى الوجود كخطيئة . أما القصتان الأوليان فهما قصيتا خلق الإنسان كما وردتا فى الأديان السامية والبرهمية،وهما - فيما يبدو - من أصل واحد، أما القصة الأخرى فهى أسطورة خلق العالم الفكرى عند الإغريق.

فالقصة السامية - كما وردت فى سفر التكوين بالتوراة - تخبرنا أن الله بعد ما خلق السماوات والأرض، خلق جنة وضع فيها آدم وحواء وحرّم عليهما أن يأكلا من شجرة معرفة الخير والشر لئلا يموتان "وكان كلاهما عريانين : آدم وحواء امرأته وهما لا يخجلان". (تكوين ٢٥:٢) لكن الحية أحيل جميع الحيوانات أغرتهما فأكلا من الشجرة المحرمة "فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر (تكوين ٣: ٧).

أما القصة البرهمية فينتقل المسرح فيها من عدن إلى جزيرة سيلان (سيريلانكا حاليا) أما البطلان فيحملان

الاسمين نفسيهما مع تحريف بسيط،وقد حرّم الإله عليها أن ينتقلا من هذه الجزيرة إطلاقا. غير أنهما كانا يلمحان على الشاطئ المقابل -شاطئ الهند- جبالاً من الذهب وأراضي من الذهب، وهنا أيضا خالف آدم وحواء الوصنية المقدسة فصنعا لهما زورقا وعبرا به البحر إلى حيث التلال الذهبية والأرض الزبرجدية، لكنهما ما إن وصلا إلى الشاطئ المسحور حتى لم يجدا سوى تلال جرداء وأرض قاحلة، وحين أرادا العودة لم يستطيعا.

هنا نلاحظ أن هاتين القصتين تعلنان أنه ليس من الصحيح أنه قد وُجدت جنة بها سعادة مطلقة، ليس فقط لأن معايشة السعادة لا يمكن أن تتحقق إلا إذا عرفنا معنى الشقاء كما سنرى فيما بعد، بل كذلك لأن ثمة قلقا كان يشوب سعادة آدم في جنته - ذلك أن يأكل من الشجرة المحرمة - يريد أن يعرف، يرى أن جهله خطيئة، لا سبيل للتكفير عنها إلا بخطيئة أخرى: عصيان ربه، فيأكل من ثمرة الشجرة المحرمة عليه وعلى حواء "فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان" (تكوين ٣: ٧) من يومها بدأت سلسلة الآثام التي يقال إننا ورثناها من آدم ونورثها أبناءنا من بعدنا.

ويلاحظ ثانيا أن الخطيئة كانت خطيئة المعرفة. والاختلاف الذي يثير انتباهنا في هاتين القصتين هو أن نتيجة المعرفة

فى القصة التوراتية كانت منصبة على الذات حيث أحس آدم وحواء أنهما عريانان، بينما فى القصة البرهمية كانت منصبة على الموضوع حيث الجبال والأرض أمامهما هى التى تعرت من جمالها الجذاب.

أما القصة الثانية فهى قصة خلق العالم الفكرى عند الإغريق. فنحن حين نستعرض هذه التجربة الفريدة التى عاناها الفكر الإغريقى منذ طاليس (القرن السادس قبل الميلاد) حتى الرواقيين والأبيقورين (أى من القرن السادس والخامس حتى الرابع والثالث قبل الميلاد) نحس كأنما نحن بإزاء أسطورة خلق عالم فكرى كامل، خُلق من ذلك الخليط الذى كان مزيجا من حكمة المصريين وفكر الهنود وحضارة بابل وأشور. ويبدو أن الله – فى الفلسفة الإغريقية – قد بدأ يستريح فى اليوم السابع عند الرواقيين (تأسست هذه المدرسة فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد) والأبيقوريين (أبيقور ٣٤٢ – ٣٧٠ ق م) وذلك حين بدأوا يتحدثون عن "الأتراكسيا". وهنا نلمح الفرق الواضح بين الروح الشرقية والروح الإغريقية. كانت الأولى يمثلها الدين الإسرائيلى أو البرهمى الذى يعتبر الوعى خطيئة محّرمة، وكانت الثانية تمثلها هذه الآية المكتوبة على معبد دلف فى أثينا " اعرف نفسك. رغم أن النتيجة واحدة فى الحالتين: العُرى. فقد قرأ

سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩) هذه الآية التى يأمر بها كهنة الآلهة فى معبد دلف بأثينا، وتغرى بها الحية فى جنات عدن، واقترف خطيئة الوعى فأحس بالعرى كما أحس به من قبل أدم وحواء عندما تناولا من ثمار شجرة المعرفة ، فحتى آخر أيام حياته، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة - بعد أن حُكم عليه بالإعدام بتجرعه كأس السم - كان يقول: إنى أعرف شيئا واحدا، هو أنى لا أعرف شيئا : تلك هى نتيجة الوعى: الإحساس بالجهل. بينما هناك فريق آخر بعدما اقترف خطيئة الوعى انتهى إلى ما انتهى إليه آدم وحواء فى الأسطورة البرهمية، فأحس أن الحياة تافهة وشك فى قيمة الوجود ومغزاه (*) .

(*) يحول فلوجل - وهو من أتباع المدرسة التحليلية فى علم النفس - فى علم النفس - فى كتابه الإنسان والأخلاق والمجتمع أن يضفى معنى جنسياً على هذه القصة باعتبار أن الحية التى أغوت المرأة ترمز إلى العضو الجنسى للرجل.

على هذا الضوء نستطيع أن نعرف الخطيئة بأنها فعل - أو حركة - نعشقه بقدر ما نكرهه،نجد فيه لذة بقدر ما نجد من ألم، نحس بالرغبة في إتيانه والقلق من عدم تحقيقه، فإذا ما أقبلنا عليه أحسسنا سعادة أو لذة عنيفة حتى إذا ما حققنا رغبتنا منه أحسسنا الملال والندم، لكننا ما تلبث أن نشعر بحنين جديد إليه وأسف بالحرمان منه، ثم يتكرر كل شئ من جديد. ومن هنا نفهم ما يعنيه كلوديرن حين يقول "أعظم خطايا الإنسان ميلاده. "وما يعنيه المثل الإغريقي " الملال علة الجريمة"، وما يقوله النبي داود (نحو ١٠١٠ - ٩٧٠ ق.م) في مزاميره "بالخطيئة حبلت بي أمي" (مزمور ٥ : ٥)

ونستطيع من هنا أن نستخلص صفات عامة للخطيئة: أولها تداخل المتضادات فجهل آدم دفعه إلى أن يعي، ووعيه دفعه أن يندم على ما اقترفه. من هنا يكون عدم الاستقرار والقلق المستمر والمرتبط بحياة الخطيئة.

وثانيا فإن معنى الخطيئة يرتبط أشد الارتباط باللذة والندم. فالحياة كما يقول بيرون) pyrrhon بين ٣٦٠-٢٧٠ ق.م) "نجمة معلقة بين عالمين، بين الليل والفجر على حافة الأفق لأن الحياة دائمة التذبذب بين الشقاء والسعادة".

فإذا فزعنا فإن الآمــن غايتنا   وإن آمنا فما نخلو من الفزع
وشيمة الأنس ممزوج بها ملل   فما ندم علي صبر ولاجزع

فليس هناك جانب واحد،بل جانبان يتناقضان فى الذات الواحدة والنفس الإنسانية تحويها جميعا وتحاول أن ترضيها جميعها، وما مرحلة الكمال إلا مرحلة الموت،لأن عندها ينعدم الصراع والصخب جوهرا الحياة. فهذه الثنائية موجودة بالضرورة، فنحن نعى اللذة حين نعرف الألم، ونعرف الألم حين نعرف اللذة. فإذا كنا نألم فمعنى هذا بالضرورة أننا عرفنا حالة أفضل، وإذا كنا نسعد فمعنى هذا بالضرورة أننا عانينا حالة أشقى.

وثالثا نرى أن الملال يلعب هنا دوراً كبيراً . يقول الشاعر الإيطالى "ليوبردى" (١٧٩٨-١٨٣٧)": إن الملال هو بمعنى من المعانى أنبل العواطف الإنسانية، فعدم إمكان الرضا عن أى شىء أرضى؛ بل ولا عن الأرض كلها إن صح هذا التعبير، وتأمل سعة المكان اللانهائية، وعدد العوالم الهائل وضخامتها، ورؤية كل شىء ضئيلاً كل الضآلة بإزاء سعة النفس الخاصة، وتخيل عدد العوالم اللامتناهى والكون لانهائى، ثم الشعور أن النفس ونزوعها لايزالان أكبر من هذا الكون المتخيّل، واتهام الأشياء بالنقض والعدم، والشعور بالعوز والخلاء وبالتالى بالملال، كل هذا يبدو أنه أعظم دليل على العظمة و النبل فى الطبيعة الإنسانية".

ورابعا تتميز الخطيئة بانعدام إرادة مرتكبها أو بما يمكن تسميته إرادة الخطيئة؛ لأن الخاطئ يعشق الخطيئة التى تشقيه.

-٤-

وأعظم خطايا الإنسان هى خطيئة الوعى. وفى التوراة كان الله يريد أن يعى نفسه فى موضوع "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا " (تكوين ١ :٢٦) لكن آدم وحواء خالفا وصية الرب فأكلا من ثمر الشجرة المحرمة عليهما: شجرة معرفة الشر والخير "فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان " (تكوين٣ :٧) فأغرق الله الإنسان بعد قليل بالطوفان، لكنه – طبقا لرواية التوراة – لا يزال حريصا على هذا اللون من معرفة نفسه عن طريق خلقه فأبقى نوحا، لذا كنا نبع ألم ولذة، وما الجحيم و النعيم إلا الرمزان الواضحان لهذا الألم وتلك اللذة: فالذات تريد أن تعى نفسها دائما فى موضوع، لأن الضد لا يعى نفسه إلا فى الضد، لهذا نحن نعى اللذة حين نعرف الألم، ونعى الألم حين نعرف اللذة. فالوعى خطيئة فى جوهره، وبهذا تستحيل الخطيئة من نظرية فى الوجود إلى نظرية فى المعرفة تعبيرا عن الوجود الإنسانى ومعاناته الحية، فنرى بروميثيوس يخاطب كبير الآلهة قائلا:

أفتخر بالمعرفة الصادقة التى أتحتها للبشر .
لقد أذكيت فيهم ظمأ لا ترويه تلك المياه المهلكة،
حين أيقظت فيهم حب المعرفة
لقد ألهبت فيهم ظمأ قلقا أشبه بظمأ المحموم

لقد ألهبت فيهم الأمل والحب والشك والشوق.
فهى تأكلهم أكلا إلى يوم الممات (شلى، بروميثيوس طليقا، ترجمة لويس عوض) .

وما الحب أو الصداقة أو الإبداع الفنى إلا أنواع من خطيئة الوعى - ففى الحب تبدو هذه الخطيئة فى أروع صورها . ونحن نجد فى المسيحية خير توضيح لذلك حيث تصبغها فكرة الخطيئة التى يكفر عنها الحب "هكذا أحب الله العالم حتى يذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به" (يوحنا ٣:١٦)

كذلك الصداقة خطيئة من خطايا الوعى، فهى مثل الحب، محاولة لوعى أنفسنا فى أخر، نود أن نعثر على جانب من جوانبنا فى موضوع خارجى، فنحن لا نحب الصديق إلا لأنه يؤكد لنا ذاتيتنا، يقول أرسطو إن "الصديق هو أنت ألا أنه بالشخص غيرك" ويعلق أبو حيان التوحيدى (توفى حوالى ٥٤٠هـ/١٠١٠م) فى كتابه "الأدب والإنشا فى الصداقة والصديق" إن تعريف أرسطو للصديق تعريف صحيح لكن مثل هذا الصديق لا وجود له لأن كل إنسان مختلف بالضرورة عن الآخر ... إنما قُصد بهذا الحد المبالغة فى الحث على توخى الصديق لصديقه حالا لا يكاد يفصل بينهما فى إرادة وإيثار وقصد ومحبة و كراهية ورضا" فنحن لا

نحب الصديق إلا لأنه يؤكد لنا ذاتيتنا، وما يخالفنا فيه يصبح إطاراً من خلاله نرى أنفسنا. كتبت مرة إلى صديق أقول "لكم عانيت من ثورة الضمير يا صديقى، لأننى أحس فى أعماق نفسى أن صداقتى معك ما هى إلا نوع من الخطيئة ، أحبك لنفسى، بل أنا ما أحببتك إلا لأنك تؤكد لى جانبا من جوانب ذاتى، وربما كان هذا هو الجسر الرفيع الذى التقينا عليه معاً ... أما حيث أراك لا تتفق معى فإننى أفزع منك، ثم لا ألبث أن أفزع إليك كطفل صغير لأننى أريد أن أؤمن بنفسى، أريد إنسانا يؤكد لى هذا الجانب من جوانبى؛ خطيئة حتمية أبدية يا صديقى" .

ثم التعبير هو الخطيئة التى يقترفها كل فنان. حين يثور على قيد اللغة أو الحجر أو الصوت ..فينطلق فى إبداعه الرائع. لكنه ما يكاد يبدأ حتى يشعر أنه انتقل إلى سجن آخر، فالمادة التى يعبر بها بما فيها من عجز وقصور لا تعرف ذلك الاصطخاب الحى الذى كان يعتمل فى نفسه. ولئن كان العالم حقا كما يقول بيركلى الفيلسوف الإيرلندى (١٦٨٥-١٧٥٣) هو لغة الله، فإن ذلك لا يعنى إلا أن الله نفسه كان فنانا حين خلقنا، وأنه بنفسه مر بنفس تجربة التعبير، وأننا لا شك أدوات عاجزة قاصرة إذا كنا حقا نعبّر عن فكر الله. فلا يمكن أن نكون نحن ما فى فكر الله تماما. إنما نحن التعبير

المحدود القاصر عن هذا الفكر اللانهائى اللامحدود. وهذه الخطيئة التى يقترفها كل فنان فى حقوقه الروحية لها نتائجها، فحين يندفع فى إبداعه يؤمن كل الإيمان بما يبدع، لكنه ما يكاد ينتهى حتى يحس النقص، كان ينشد التخلص من ذلك القلق الناتج عن عدم تحديد الفكرة وغموضها، لكنه ما إن ينتزعها من سديميتها حتى يدرك أنه قد جمّدها فى مادة حسّية، لكنه ما يلبث أن يعود إلى خطيئته مرة أخرى، لهذا حق لذلك المثّال الذى حدثنا عنه جون أومان أنه بكى حين لم يجد عيبا فى تمثاله الأخير، ذلك لأنه أدرك أنه وصل إلى مرحلة الكمال، مرحلة الموت. لهذا يظل الفنان قلقا قبل أن يعبّر عن فكرته، قلقا بعد أن يعبّر عنها. وما إبداع كل فنان إلا سلسلة من المحاولات غير المكتملة لوضع ذاتيته وضعا موضوعيا، ذلك لأن الذات لا يمكنها أن تطابق الموضوع، فقوالب الفكر والعاطفة غير قوالب الموسيقى أو الحجر أو اللون أو كلمات اللغة .

-٥-

جاء فى الأساطير الإغريقية أن الإلهة أثينا أقرضت البطل برسيوس درعها المصقول حتى يرى فيه وجه جورجون معكوسا فينجو من المصير الذى ينتظر كل من تضع عينه عليها مباشرة ألا وهو التحول فجأة إلى حجر. فلما قطع رأس جورجون حملها معه وبها عاقبت برسيوس أطلس لسوء ظن الأخير به، وذلك بأن أبرز له رأس جورجون بعد أن أدار وجهه ناحية أخرى حتى لا تقع عيناه عليها، فما أن أبصر أطلس الرأس حتى استحال إلى جبل شاهق رأسه بين النجوم. وجاء فى التوراة "أن كل من رأى الله فموتا يموت.. لأن الإنسان لا يرانى ويعيش" (تكوين ٣٣ : ٢٠) فما عساها تعنى هذه القصص، ولماذا أرتبطت المعرفة بالموت، حيث الرؤية هنا ليست إلا رمز المعرفة، وحيث جاء فى قصة آدم وحواء التوراتية أنه يوم يأكلان من شجرة معرفة الخير والشر فموتا يموتان .

إن ارتباط المعرفة بالموت توضح لنا النهاية الطبيعية للوجود الذى هو خطيئة، لقد سمعنا سقراط يقول" إنى لا أعرف شيئا "فعّبر بذلك عن آخر ما عرفه. وفى الأسطورة البرهمية أحس أبوانا الأولان بنهاية الحياة، فالجبال الذهبية والأراضى الزرجدية أصبحت بعد الاقتراب منها جبالا رملية

وأرضا قاحلة. وفى القصة التوراتية (السامية) أحس أبوانا الأولان بعريهما وابتدآ يغطيان جسديهما بأوراق الشجر. لهذا فنحن فى حاجة إلى درع مثل درع أثينا المصقول نرى من خلاله الحياة فلا يصيبنا الموت. نحن نعيشها من خلال الحب والصداقة والفن والعمل .. هذه وسائلنا لممارستها، فإذا تجردنا منها جميعا واجهتنا بوجهها الآخر "اللامغزى" وهو وجه مرادف للموت.

والبشرية فى تجربتها التاريخية، أحست بعرى الحياة سواء الذات أو الموضوع، فتطلعت إلى أشجار تصنع من أوراقها مأزر عسى يختفى هذا الإحساس بالعرى. فالخيّام (توفى ١١٣٢م) تطلع إلى الكرمة يعب منها ما استطاع:

كم شيوخ وقسوس أكثروا   في انتقاد الكون حتي ثرثروا
بالغوا في الحدس حتي هذروا   ثم سلّ الموت منهم مقولا

وغدت أقوالهم سقط متاع

دع رجال العلم في شغب الجدال   ينفقون الدهر في قيل وقال
كل شئ في الوري محال   غير موت بات يطوي أملا

ليس يذكو بعدما يخبو شعاع

طالما خضنا غمار الفلسفة   وسمعنا من صواب وسفه
وخبطنا في مضل معسفه   ثم صرنا حيث كنا أولا

لم نسر نحو الهدي قيد ذراع (ترجمة أحمد رامى)

أما أبو العلاء المعرى (٩٧٣-١٠٥٧) فقد لجأ إلى الزهد

والتقشف، ولم يتطلع إلى انتحار فردى بل انتحار جماعى لتتخلص البشرية كلها من وجودها فلا تعود ثمة خطيئة، وذلك بالقضاء على النسل، فقد ورث عن أبيه خطيئة وجوده، فكان أرحم من أن يورثها أحداً بعده:

هذا ما جناه أبي عليّ   وما جنيت علي أحد

أما شوبنهور (١٧٨٨-١٨٦٠) فقد رأى الخلاص فى هاوية العدم، فطالما كانت الخطيئة هى وجودنا نفسه، فإن الخلاص الوحيد منها هو التردى فى هاوية العدم.

أما لورد بايرون (١٧٨٨-١٨٢٤) فقد تطلع إلى الحب لعله ينسينا ما نحسنه من تفاهة الحياة، لكن الحب - كما رأينا- ليس طريقا للخلاص، بل طريقا أسرع إلى المعرفة.

دعا كل هؤلاء إلى التخلص من قلق الخطيئة، أما نحن فلا نريد خلاصا، لأننا نفرق بين الخطيئة والشر. فالشر جانب من جانبى الخطيئة وبه وحده لا نتحمل الحياة، أما حياة الخطيئة التى نعنيها ونعانيها كبشر فهى تجمع بين آبولون (إله الجمال) وديونيزيوس (إله الخمر أو الشر). والخلاص معناه هنا الموت، ونحن كأحياء نريد الحياة، نريدها فى أعمق أعماقها حيث يربض القلق باعث الخصوبة فيها.

هنا نستطيع أن ندرك مدى ارتباط القلق بالخطيئة بالحياة. فالكثيرون لا ينظرون إلى الخطيئة إلا من جانب

واخذ، جانبها المظلم، ويعتبرون القلق حالة غير طبيعية، فيستسلمون فى النهاية إلى أحد الجانبين : الظلام أو النور، لكنهم فى الواقع لا يتخلصون، فالنور يظل يقلق هؤلاء الذين يحيون فى الظلام،والظلام يظل يقلق هؤلاء الذين يحيون فى النور. لن ننادى هنا بمذهب اللذة عند أبيقور (٣٤٢-٢٧٠ ق .م) ولا بالأتراكسيا كما نادى الرواقيون (أسسها زينون الكينوى فى القرن الرابع قبل الميلاد) ، ولا بالانغماس فى اللذات كما نادى الخيام، ولا بالزهد والتقشف كما نادى المعرى، ولا بالنزول إلى هاوية العدم كما فعل شوبنهور . فكل هؤلاء أدركوا أن القلق والخطيئة جوهرا الحياة، لكن لم يكن لهم الجرأة على أن يعشقوا الحياة بما فيها من قلق وخطيئة.لهذا كانت النرفانا (السعادة القصوى بقتل شهوات النفس فى البوذية) هى حالة الكمال عند البوذية، ولهذا عندما قال المسيح "قد أُكمل" كان قد أسلم الروح، ولهذا كانت الحجة التى قال فيها النبى محمد رسول الإسلام "اليوم أكملت لكم دينكم" كانت حجة الوداع".

هؤلاء جميعا يفصحون جميعا أنه عند الكمال تقع النهاية.

فالملال الذى وصفه الشاعر الإيطالى ليوباردى (١٧٩٨-١٨٣٧) بأنه أنبل العواطف الإنسانية ، الملال الذى يحملك

على نشدان الخلاص من تجربة لتحيا فى تجربة أعمق،هنا لا يعود القلق لعنة الحياة بل جوهرها . ونصيح حتى آخر أنفاسنا مع "كاليجولا" ألبير كامو (١٩١٣-١٩٦٠) ونحن نتلقى الطعنات إثر الطعنات : إنى مازلت أحيا .

تحرير الماضي من المستقبل
و
تحرير المستقبل من الماضي

القدماء والزمن

أدت الاكتشافات الحديثة إلى تطور كبير في نظرة المفكرين إلى المادة والكون والفضاء والزمن ... وهي نظرة كونية لا تؤثر على الحياة اليومية للأفراد والجماعات ، فنحن نولد ونعيش ونموت في سياق سهل منساب.

إلا أننا ما زلنا جزءاً من الكون ، نحن لسنا سوى نتائج حتمية لقدرة النجوم على أن تتناثر مؤدية إلى وجود كواكب مثل الأرض يمكن أن توجد عليها الحياة. إن أجسادنا، نحن وغيرنا من الكائنات الحية ، تتكون من مادة النجوم .. التي تتكون بدورها من جسيمات ذات ثوابت مقدر لها أن تؤدي إلى الأحداث الكونية التي جاءت بالحياة .

كما تأثر فلاسفة القرن العشرين بما قال به هنري بوانكارية (١٨٦٠ - ١٩٣٤) وألبرت أينشتاين (١٨٧٩ - ١٩٥٥) ، من نسبية الزمن ، التي تتوافق تماما مع قياسات حركة الضوء ، (مع أنها ترجع إلى ما قبل ذلك بأكثر من قرنين !) فإن فلاسفة عصر التنوير مثل إيمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤)، بنوا أفكارهم عن الزمن على أساس من قوانين نيوتن (١٦٤٣ - ١٧٢٧) ، التي أوضحت نسبية تامة للفضاء ، برغم أن نيوتن نفسه لم يقر بهذا علنا. أما نسبية الزمن - فبرغم اكتشاف أن الضوء له سرعة - فإن نيوتن ،

مثل أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م .) من قبله ، لم يكن له أن يتصور نسبية الزمن ، إنه يقول فى "برنكيبا" :

"كل أنواع الحركة يمكن تعجيلها وتبطيئها ، لكن تيار الزمن المطلق لا يمكن أن يتعرض لأى تغيير، إن فترة بقاء الأشياء أو استمرارها ، تظل كما هى ، سواء كانت سرعتها نشطة أو بطيئة ، أو لم تكن على الإطلاق ، وبالتالى ، فإن علينا أن نفرق بين هذه الفترة ، وما هو مجرد قياس حسى لها ، والذى نستنبطها منه باستخدام المعادلة الفلكية" . (برنكيبا ٦ ، ٨) .

فى كتابه "نظرية كانط فى الزمن" يقول الدكتور جلال صادق العظم :

نتمثل عقيدة نيوتن فى مطلقية الزمن فى هذه النقاط :

هناك فرق بين الزمن الرياضى المطلق ، ثم الزمن النسبى الظاهرى وهو الزمن العمومى الذى يتحدد بمنظومة العلاقات بين الأحداث ، ثم الزمن السيكولوجى وهو إدراكنا الشخصى والذاتى الآتى من أحساسنا بمضى الزمن .

الزمن المطلق وعاء شامل يحتوى كل ما فى الكون من أحداث وعمليات ، كلها قابلة لأن تتحدد لها مواضع ثابتة فى الزمن .

الزمن المطلق هو فى الحقيقة لا نهائى ، نتيجة للتجانس

الكامل بين لحظاته ، تدفق أو تتابع هذه اللحظات يجعلها متشابهة تماما ، ولا يمكن التفرقة بينهما إلا من حيث الأحداث التى تقع فيها .

ثم يضيف الدكتور العظم :

"سوف يلحظ القارئ أنه ، عند كانط ، كانت النظرية العامة للحركة ، أى علم الحركة النيوتونى ، يرتبط بالزمن بعلاقة هى علاقة الهندسة بالفضاء" .

ثم يورد مقولة كانط : وهكذا فإن إدراكنا للزمن يفسر إمكانية هذا القدر من المعرفة القبلية التى تتضح من المفاهيم العامة للحركة ، ثم إن الرياضيات الخالصة تتناول الفضاء فى الهندسة ، والزمن فى علم الحركة الخالص .

من ذلك نرى أنه حتى على مستوى الكون الرحيب ، كانت فلسفة ذلك العصر (القرن الثامن عشر) تقطع بأن الزمن مطلق ، وبالتالى فالفضاء أيضاً مطلق رغم أنه لا يبدو كذلك ، فكل ما فيه – طبقاً لنيوتن ، الذى أعلن كانط أنه مقتنع تماما بنظرياته – يتحرك دون أدنى أمل فى تحديد موضع لأى شىء. لعل أعظم فارق جاء به "الزمن" الذى انقضى من ذلك الوقت حتى بداية القرن العشرين ، هو اكتشاف نسبية الفضاء ثم نسبية الزمن ثم كونهما نسيجا واحدا لا وجود لخيط منهما دون الآخر ، وأن المادة ليست سوى نوع من

الإشعاع ، وأن وجودها داخل هذا النسيج يحدث التواء فى خيوطه يجعل كل شئ يسلك مسارا يبدو لنا منحنيا لكنه أقرب شئ إلى الخط المستقيم فى فضاء - زمن رباعى الأبعاد، وهذا هو تفسير ظواهر الجاذبية التى كان تفسير نيوتن لها يبدو منطقيا له آنذاك ، ويبدو صحيحا تماماً من الوجهة العملية والتطبيقية ، وإلى يومنا هذا فإن كل التكنولوجيا التى يملكها الإنسان تبدو متفقة تماما مع قوانين نيوتن فى الحركة ، بما فى ذلك معادلاتها ، التى تقوم على ثبات الكتلة ، التى هى عنده "كمية المادة" ، بينما نحن نعرف الآن أن الكتلة تتزايد مع تزايد السرعة ، فقط لابد أن تكون هذه السرعة كبيرة جداً لكى نحس بهذا التأثير .

الواقع أن كل شئ نفكر فيه لابد أن يكون هائل الحجم لكى ندرك مدى خطأ نيوتن فى تفسيره للعالم الفيزيائى ، بما فى ذلك طول حياة الإنسان (دون أن ينتقص هذا من عبقرية نيوتن وفضله على المعرفة الإنسانية طبعاً) كان عمر الإنسان البدائى فى متوسطه عشرين سنة ، وقد امتد إلى أربعين - يعنى تضاعف - بنهاية القرن التاسع عشر ، ثم جاء القرن العشرون بما يقرب من تضاعف جديد - بما جاء معه من ارتفاع غير مسبوق فى الرفاهية والرعاية الصحية ، فأصبح المتوسط هو ٧٢ سنة ، فى العالم المتقدم (وعندما نقول المتقدم

فإننا نستخدم التعبير بمعناه الزمنى فقط ، وهو أن الإنسان يتغير فى بعض أماكن من العالم بينما لم يزل كما هو فى أماكن أخرى أو تغير جزئيا فقط) وحق لكاتب مثل برنارد شو (١٨٥٦ - ١٩٥٠) أن يتساءل فى مقدمة مسرحيته : "العودة إلى ميتوشالح" (ميتوشالح التوراة ، الذى يأتى فى سفر التكوين إنه عاش ٩٦٩ سنة) : "لا أحد يستطيع أن يفسر لماذا يعيش الببغاء عمراً يصل إلى عشرة أمثال عمر الكلب، أو أن السلحفاة تعيش إلى الأبد تقريباً ، أما الإنسان ، فإنه من وجهة نظر المدنية الرفيعة ، فحقا ! إنه يموت فى طفولته !".

وقد تحقق هذا الامتداد فى عمر الإنسان بمجرد امتلاك القدرة على مكافحة الأدواء المميتة ، وعلى رأسها أمراض القلب والحميات ، لكننا لا نتحدث عن ذلك ، بل عن تقنيات الوراثة البيولوجية وابتداع الوسائل السايبرنطيقية التى يمكن بها تعويض الإنسان عن أعضائه التالفة . يبدو أن إنسان القرون القادمة قد يمتد به الأجل آلاف السنين . لم يكن نيوتن يفكر فى نسبية الزمن طبعاً ، كان هذا عنده يعد مروقا وعصيانا مبينا ، بل إنه برغم أن قوانينه ومعادلاته تشير إلى نسبية الفضاء فإنه لم يكن يقر بهذا ، مما جعل برتراند رسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠) يصفه بأنه كان "نيوتن لكنه لم يكن

نيـوتونيـا". الذى يعنينا الآن من هذا هو أن الإنسـان - إذا عاش - فـإنه لن يعيش آلاف السنين فحسب ، بل إنه سوف يمرق إلى الفـضـاء بسـرعـات هائلة تبطئ مـرور زمنـه هو - وليس بالضـــرورة زمن "المتـــخلفين" ، ســواء بمعنـى أنهم متـخلفـون وراءه ، أو غيـر ذلك - وبالتـالى فإن غـزو الفـضـاء يصـبح مـتـاحـا ، بل من يدرى ؟ لعله يكتـشف فـى نسـيج "الفضـاء زمن" ... أبعاداً إضـافية ؟ إنه لو كـان هناك فضـاء زمن خماسى أو سداسى الأبعاد ، أو له عشرات الأبعاد كما يقـول العلمـاء إنه يوجـد فـى أعـمـاق الذرة - مما تخلف عن عملية خلق الكون - فإن السنين الضـوئية قد تتحول إلى ثوان ضـوئية ، والسنين الزمنية تتحـول مع نسبية الزمن إلى ثوان هى أيضاً ... وكما يقول إليوت (١٨٨٨ - ١٩٦٥) إن الماضى قد يكمن فى المسـتـقـبل ، والحـاضـر والمسـتـقـبل ربما فى الماضي.

إن الذى كان يمكن أن يكون ،

ليس إلا المجرد الذى يظل احتمالا أبديا ...

فى دنيا لا وجود لها ، إلا فى حياتنا ...

حقا ! إن تحرير المستقبل من الماضى ، وتحرير الماضى من المسـتـقـبل ، لا يمكن لهـمـا أن يكونا حـقـيـقـة ، إلا فى خيالاتنا .

مازالت أحداث من الأعماق السحيقة "للفضاء زمن" تترك آثارها على حياتنا على هذا الكوكب النادر الطراز ، بل وما زالت تحدث حتى هذه اللحظة ، بأحجام ومرتبات متفاوتة ، فى المكسيك يوجد فى شبه جزيرة يوكاتان ، منخفض مخيف، عرضه يصل إلى مائتى كيلو متر ، نتج عن كتلة كوكبية لا يتجاوز حجمها ربع هذه الحفرة ، فقط كانت سرعتها كافية لأن تثير سحابة من الغبار حجبت ضوء الشمس سنوات عن أحياء الكوكب ، مشيعة جوا من البرودة القارسة والهواء الخانق ، مما أدى إلى هلاك حيوان الديناصور ومحو ما لا يقل عن سبعين فى المائة من صور الحياة وأنواعها ، كان هذا منذ ... خمسة وستين مليون سنة، وكانت قد سبقت أحداث مماثلة قبل ذلك بعشرات الملايين من السنين ، وبعد ذلك بشكل متكرر ومخيف ، "أحدثها" حفرة هائلة فى ولاية أريزونا الأمريكية نتجت عن جرم فضائى حديدى هبط عليها منذ خمسين ألف سنة – وهذا بلغة الكون "أول أمس" – فأحدث فجوة تقرب من ثلاثة أمثال مساحة ملعب للكرة عمقها يناظر ارتفاع مبنى من سبعين طابقا ، لو هبط "جسيم" كهذا على مدينة حديثة محاها من الوجود. ثم من حوالى مائة سنة فقط، بالتحديد سنة ١٩٠٨ سقطت كتلة صخرية – أو ما يظن أنه كذلك ، إذ لم تعرف الحقيقة بالضبط – فوق سيبيريا ، لكنها

احتكت بالغلاف الجوى مما أدى إلى سخونة شديدة أدت إلى انفجارها فوق غابات غير مأهولة ، بقوة تعادل قنبلة هايدروجينية ، مما أدى إلى تناثر الأشجار وإفناء الحيوان. بل فى نهاية القرن الماضى فقط ، إقترب شئ كهذا من كوكبنا على مسافة تقل عن نصف مليون كيلو متر ، وتكاد تعادل المسافة بين الأرض والقمر. بل وأثناء مارس ١٩٩٨ ، قدر العلماء أن صخرة قطرها ميل واحد تتجه مسارا محققاً نحو الأرض ، والذى حدث أنها مرت على مسافة خمسين ألف كيلو متر ... وفى جعبة المدافعين عن الكوكب وسائل تتراوح من مقذوفات تزيح هذه الصخور الكونية عن مسارها ، إلى أنواع من الروبوت الفضائى تكتشف تكوينها ومساراتها المحتملة وتدل على نوعية القذائف النووية وقوتها والتى تلزم لتحطيمها ثم تتوقى شر شظاياها الهائلة. فى جميع الحالات مازلنا نعيش فى أخطار ماحقة من مواضع مختلفة من "الفضاء زمن" ، قد لا تحمينا منها حتى محاولات التخلص من مخلفات الماضى التى تتمثل فى هلاك تسعين فى المائة من أنواع كائناته فى أحداث كونية وبفعل التلوث ، واستمرار هذه الأحداث واحتمال وقوع المزيد منها قبل فرار النوع الإنسانى من الكوكب ، ثم التلوث نفسه ، والتفاقم السكانى الذى يهدده تنبؤ مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) بالحروب والأوبئة. إلا أنه

يبدو أن الإنسان قد وضع قدمه خارج كوكب الأرض وأنه لديه ما يكفي من الزمن لأن يبقى كنوع حتى بعد أن يتلف الكوكب ، وأنه سوف يكون مخلوقا مختلفا إلى حد بعيد ، حتى في قيمه . إن القوة النووية المدمرة ، التي لعنها إنسان القرن العشرين ، من هيروشيما إلى تشيرنوبيل ، سوف تكون وسيلته إلى تنظيم قواعد المرور في أعماق "الفضاء زمن" ، سوف تتراجع الروابط الأسرية ، كما انتفت الروابط القبلية ، وقد بدأت ظواهر هذا من الآن، إن ما يقرب من نصف المواليد في الدول الاسكندنافية تلدهم أمهات غير متزوجات ، وتقل النسبة عن ذلك قليلا في شمال أوروبا والأمريكتين ، وليس لديهم عيب في ذلك أو قيود عليه ، وبالعكس ، فإن التبني أصبح ظاهرة شائعة وحقا للرجال والنساء – بل ومن هم لا هذا ولا ذاك – حتى لو لم تكن هناك روابط ، والروابط لم يعد تسجيلها ضرورياً، والتسجيل سيكون إلكترونيا ، فلن تتسع مركبات الفضاء للأطنان من مجلدات الوثائق ، والأكثر من ذلك : هل تتسع حتى لأقراص الكمبيوتر ؟ شذرات صغيرة من السيليكون ، في رأس كل آدمي" ... كما تتنبأ من الآن روايات أدب الخيال العلمي .

تراث الماضي :

يتميز الإنسان – هوموسابينز ، الذى نعرفه حتى الآن – بثلاثة امتيازات عظمى ، وإن كانت بعض الأنواع الذكية تشاركه فيها بدرجات متفاوتة : جهاز عصبى راق يختزن الخبرات والأفكار والعواطف ، قدرة على تكوين حروف النطق وبالتالى تبادل هذه المختزنات ، ماضية كانت أو حاضرة ، أو حتى مستقبلية ، ثم الأصابع التى يمكن بها أن يمارس قدرة فى غاية التميز ، وهى إنتاج الآلات والأدوات ، من المطرقة الأولية ، التى يشاركه فيها الأورانجوتان ويستخدمها ككسارة بندق ، إلى كمبيوتر الجيب ، تمهيدا لكمبيوتر الرأس. وقد جاءت حاجاته الأساسية نتاجا لإمكاناته ومتفاعلة معها. إنه يشترك مع كائنات أدنى منه فى الحاجة إلى الغذاء، إلى إشباع جوعه البيولوجى ، وإلى الأمن لإشباع رغبته الغريزية فى تجنب الأخطار الناجمة من الطبيعة وعن الوحوش ، أدى هذا إلى التماسك الاجتماعى ، "الجماعة" أو– دون إخلال باحترامنا لذاتنا – "القطيع" عن "هوموسابينز" ، جاءت هذا الكائن بالأمن ، الغذائى ، "والحياتي" ، وفى مقابل أداء دوره فى الجماعة . فى أول الأمر كان الصراع بين الجماعات – وهو ما أُطلق عليه فيما بعد اسم "الحرب" – جاء بالحاجة إلى التنظيم الاجتماعى من أجل "القيادة" ، و"اتخاذ القرارات" ، هذه التعبيرات التى أصبحت مألوفة الآن فى علوم الإدارة .

حياة الجماعة أدت إلى تنظيم وظيفة "الحب" ، الإنسان البدائى جداً ، لم يكن يعرف أبناءه ، كانت المرأة بحكم رعايتها لمولودها تدرك ارتباطه بها وارتباطها به ، أما الأبوة ، فكانت مرحلة لاحقة لهذا ، ومازالت القبيلة كمؤسسة وكوحدة اجتماعية توجد فى حالة مثل القسيس المتأله ، جيم جونز ، الذى أنشأ مستعمرة فى جويانا يستعبد فيها بضع مئات من الأمريكيين. ومن ذلك أيضاً الدافيديون فى تكساس ، وغيرهم من دراويش العصر الإلكترونى فى سويسرا وكندا. يأتى هذا النوع من "التمرد" برغم أن المجتمع الحديث بمؤسساته الصناعية والتجارية، وخدماته الأمنية والعدالية ، كان يجب أن يكون أكثر إقناعا بتوفر الأمن والغذاء ، و ما أسهل أن يظهر الآن على المسرح هذا النوع من القادة السياسيين: الصورة الحديثة لمشايخ القبائل وقادة الجماعات فى معاركها مع الوحوش ، ومع بعضها البعض كما رأينا فى النظم الشيوعية والفاشية فى القرن العشرين.

السلطة والأنظمة السياسية :

يحكى أن كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٩ ق . م) شاهد امرأة تبكى بحرقة عند سفح الجبل ، فلما سألها عن مصدر تعاستها التى مزقت قلبه ، حكت له أن النمور افترست أباها ثم زوجها ، واليوم ، لحق ابنها نفس المصير ، فسألها : لماذا

تبقين فى مكان تسوده الوحوش المفترسة ؟ أجابت : لأنه لا توجد فيه حكومة مستبدة. قال الحكيم المعلم : "تذكروا هذا يا أبنائى أن الحكومة المستبدة أفظع من النمور المفترسة" .

إلا أن الحياة بدون حكومة حتى ولو كانت مستبدة وفاسدة ، وهو ما دعا إليه الفوضويون ، ليست حلا ذهبيا لهذه المشكلة التاريخية والمستقبلية ، وفى هذا يقول عالم النفس أدلر (١٨٧٠ - ١٩٣٧) فى كتابه المعنون "الطبيعة البشرية" إن الناس نوعان، نوع يريد أن يكون زعيما ، وآخر يريد أن يكون منقادا لزعامة ، بمعنى أنه يريد أن يعيش طبقاً لقوانين موضوعة ، بينما يريد الآخر أن يكون فوق الجميع ، وكما ذهب ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) إلى أن الصراع كله طبقى ومن أجل المادة ، وكما قال فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٧) إن الجنس هو الدافع الرئيسى لدى الكائنات وعلى رأسها الإنسان ، فإنه يبدو أن السطوة هى أقوى الدوافع جميعاً، إنها تأتى من يحوزها بما هو أوفر من مال قارون وأثمن من حجر الفيلسوف .

تاريخ الحركات السياسية والتنظيمات الاجتماعية طويل جدا ، وفيما يبدو فإنه سوف يظل طويلا جداً أيضاً ، بالنسبة للشعوب التى ما تزال تحتفظ بماضيها كواقع وكحاضر لا يمكنها التخلى عنه ، لأسباب عديدة على رأسها أن هذا فى

صالح أصحاب السطوة على هذه الشعوب ، وهكذا فإنها عندما تتخلص من هؤلاء ، فإن هذا يأتى باستخدام العنف ، بعبارة أخرى "الثورة" كما تسمى ، وتاريخ الثورات أيضاً طويل جداً من أشهرها الثورة الفرنسية والثورة الشيوعية. وجميع الحركات ، ثم سلطان الدولة التى تقوم على مذهب أو قضية تُستخدم لتحميس الناس ثم تسخيرهم ، ثم ينتهى الأمر بهذه المذاهب إلى مقولة "كانديد" فى مسرحية فولتير(١٦٩٤ - ١٧٧٨) "جميل جداً هذا الكلام ، فقط نحن فى حاجة لأن نعنى بحديقة البيت" .

دفعت البشرية ثمنا باهظا جداً لأطماع الحكام ، كانت الحرب العظمى فى أوائل القرن الماضى - والتى قُتل فيها عشرات الملايين وكان جنود الخنادق يتعرضون لأن تفترسهم الفئران وهم أحياء لكنهم مصابون - كانت إرضاء لإطماع الحكام . وكانت الحرب العالمية الثانية هى الجزء الثانى من هذا الكابوس الفظيع ، فقط بدأ الحكام يتذرعون بالقضايا والمذاهب ، كما أعلن نابليون (١٧٦٩ - ١٨٢١) من قبلهم حماية الديمقراطية ، لأنها هى حكم الناس بالناس ، وكما قال عنها تشرشل (١٨٧٤ - ١٩٦٥) إنها اسوأ نظام سياسى ، أما الفاشيون ، فالديمقراطية عندهم هى حكم الأغلبية والأغلبية هى سواد الناس ، يعنى حثالة الناس ، بينما

السلطة تكون للمتازين الذين يستطيعون أن يحققوا للنوع الإنساني ما يستحقه من عظمة ، خصوصا بعد إخضاع العناصر والأجناس الدنيا وإبقائها في الدرك الأسفل حيث تنتمي. هناك حل ثالث ، هو أن يزعم الطامعون في السلطة أنهم سوف يقيمون العدالة الاجتماعية ، كما فعل قادة الثورة الفرنسية ، لكنهم ليسوا قتلة أو مجرمين مثل مارا وروبسبير، لا إنهم أخلاقيون علماء ، فالتاريخ علم كالمغناطيسية ، وله معادلات الكيمياء ، وهو محتوم أن يحدث ، هكذا. أما الحل الرابع فهو أن يدّعي الزعماء أنهم لا يأتون بشئ من عندهم ، بل ينفذون إرادة الله ، إنهم ليسوا في حاجة إلى ميثاق أو مانيفيستو ، فهو جاهز ، يأتي من خارج الكوكب من السماء، وكائنا ما كان الذي يفعلونه فهو لا فضل لهم - وبالطبع لا ذنب لهم - فيه (الحاكم بأمر الله مثالا ولقبه يدل على ذلك).

وهكذا بتبسيط وتركيز ، تتلخص أنظمة الحكم والسياسة على كوكب الأرض في الأربعة :

سياسي وفكري : التعددية الحزبية وسيادة الأغلبية ، حتى ولو كانت الأغلبية تقر نظاما شموليا يهدم هذا الذي جاء بها. فهذا النظام يستلزم درجة دنيا من الرخاء والرضا ولا يصلح للمجتمعات الفقيرة أو المتخلفة .

جبري تحكمي ، يقوم على مبدأ سيادة الممتاز : السيادة

للصفوة ، وليس للأغلبية، والصفوة ستكون طبعاً قادرة على فرض إرادتها بمقتضى قدرتها على ذلك ، جرب فى ألمانيا وإيطاليا فى القرن العشرين والكثير من دول العالم الثالث بنتائج متفاوتة .

أخلاقى علمى : كالماركسية وغيرها من المذاهب التابعة ، يزعم الاستناد إلى الحقيقة العلمية وبالتالى ينكر الأديان لأنها ليست علمية ولاحتوائها على نصوص تتعارض مع تعاليمه ، جُرب فى الاتحاد السوفيتى وتوابعه وفشل بسبب التخلف الاقتصادى وبالتالى العلمى والفكرى والتكنولوجى وأيضاً بسبب السخط الناشئ عن الفقر فى عالم لم يعد يخفى فيه شىء .

ميتافيزيقى : يعتمد فى بقائه على قوة من خارج هذا كله ، مجرد المعارضة للنظام القائم - كما فى حالة الشمولية الدينية - جريمة قد تصل عقوبتها إلى الموت أو ما هو أسوأ .

إذا لم يهلك الإنسان فى حادث كونى - وهو احتمال يظل قائماً لحين خروجه من هذا الكوكب - فإن واحدا من هذه الأنظمة سيظل قائما فى ركن أو آخر من أركان الكوكب ، المشكلة الكبرى فى أنظمة الحكم هى أن لكل نظام متطلباته من حيث الرخاء ومستوى المعرفة ، القارة الآسيوية مثلا بقعة عظيمة الأهمية على سطح الكوكب ، ثانى أكبر دولة فيها هى

الهند وهى تصر على الاستمرار فى ممارسة النظام السياسى الفكرى : الديمقراطية بمفهومها الحضارى الغربي، والذى يسود العالم الصناعى الغربى بدرجة لا بأس بها من الاستقرار بفضل الشبع ، وانسجام هذا النظام مع رغبات الناس وأمزجتهم والثقافة والمعرفة اللذين يسودان هناك، لكن التفاقم السكانى وانتشار الفقر والجهل وقباحة الحياة بمقياس ما هو سائد فى "الأحياء" المتقدمة من العالم ، لا يبشر باستمرار ذلك.

ننتقل الآن إلى الجانب الاقتصادى الذى هو الدعامة التالية فى هذا الرباعى الذى يحمل المجتمع الإنسانى فوق رأسه: أنظمة الحكم – الاقتصاد – المواثيق الخلقية – ثم: المعرفة والفنون. المستقبل سوف تشكله هذه المتغيرات الأربعة، وعلى رأسها : المعرفة، وهى بدورها التى تحمل فى طياتها تحرير الماضى من المستقبل، فهو – أى الماضى – ثابت فى أنظمته ومواثيقه وواقعه الاقتصادي، لكنه ليس ثابتا فى معرفتنا به.

المستقبل الاقتصادي :

"هيا نذهب من هنا، هذه الجزيرة قد ازدحمت بشكل لا يطاق"

البطل الخرافى بانتاجرول، مشيرا إلى "يوتوبيا" توماس

مـور(١٤٧٧ - ١٥١٥م)، بعـد أن هزم غـزاة الجـزيرة وأنقـذ المدينة الفاضلة ثم وجد أن الزحام قد أفسد المجتمع المثالى .
(فرانسوا رابيليه١٤٩٣- ١٥٥٣م: جارجانتوا وبانتاجرول، ١٥٣٢م)

كلمة "يوتوبيا" تتكون من مقطعين باليونانية"، يو" يعنى "لا" و "توبوس" يعنى "مكان"،فهى إذن المكان الذى لا يوجد . ولا غرابة فى ذلك، فهى المدينة أو الجزيرة الفاضلة كما يسمونها بالعربية. المجتمع المثالى الذى يخلو تماما من شرور البشرية رذائلها وبشاعتها . جمهورية أفلاطون(٤٢٧ ق م - ٣٥٣ ق م) القائمة على مبدأ العدالة هى أيضا يوتوبيا ولو أن هذا التعبير لم يكن قد ظهر إلى الوجود بهذا المعنى، فقد جاء به الفيلسوف الإنجليزى القديس توماس مور(١٤٧٨-١٥٣٥م) واتخـــذه عنـــــوانا لقصة كتبها باللاتينية utopia ظهرت سنة ١٥١٦، وتبعتـها مـؤلفات أخرى عديدة كلها تعتبر "يوتوبيا": فـرانسـيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م) وصـمـويل بتلر(١٦١٢-١٦٨٠م) وهـ .ج.ويلز (١٨٦٦-١٩٤٦م) وألدوس هكسلى(١٨٤٩-١٩٦٣م) الذى كتب رواية بعنوان "جزيرة" - اليوتوبيا عادة جزيرة لكى يفصلها الماء عن بقية العالم. فقط جرثومة الشر ليست فى حاجة لأن تعبر البحار، فهى قابعة فى أعماقنا نأخذها معنا حيث نذهب. فرانسوا رابيليه اتخذ

من جزيرة توماس مور مسرحا لأحداث ملحمة خرافية،بعد ١٦سنة فقط من إنشائها، تعرضت اليوتوبيا لغزو "الظامئين" هكذا أسماهم "دبسوديس" باليونانية. ما أجمل الغزو عندما يكون الغزاة ظامئين وجياعا والذى ينقضون عليه يوتوبيا . دافع البطل عن الجزيرة التى أسماها توماس مور "مدينة أموراتيس" - وهى أيضا كلمة من اللغة اليونانية تفيد معنى الغموض والعزلة،وهما صفتان لسكان المجتمع المثالي.

إذا نظرنا إلى كوكب الأرض بعين إدارية فإننا سنجده يشبه مؤسسة كبرى أخذت تتضخم وتتمدد إلى أن سادها ذلك الداء الذى يصيب المؤسسات ويجعلها تقبع كالرجل المفرط البدانة ولا يمكنها حتى أن ترجع إلى ماضيها إلا بقدر ما يمكن لمثل هذا الرجل أن يتخلص من طن من الشحم. أعراض هذا الداء هى تضخم التعداد البشرى، وانخفاض الإنتاج وتدهور المعنويات وتفشى الأحقاد والكراهية والعنف والجريمة وفساد الأمكنة. هل هناك سبيل لإدارة هذه المؤسسة المنحلة؟ هذه هى مشكلاتها:

كل خمس ثوان يستقبل كوكب الأرض مولودا جديدا، يحتاج إلى غذاء وماء وتحصين ضد الأوبئة وتعليم وعلاج طبى ورعاية. ثم، عندما يكبر، يريد عملا يكفل معاشه. الباقى قصة مألوفة لسكان الدول النامية بصفة خاصة. جميع

مشاكل الدول النامية تتفاقم كل ثانية، وتشير الدراسات إلى أنه بمجيء سنة ٢٠٢٥م – أى بعد أقل من خمس عشرة سنة من الآن – سيكون تعداد سكان الأرض قد تزايد من ٥,٥ مليار إلى ١٠أو١٢ مليار، وسيكون ذلك مصحوبا بنقص المياه الصالحة للاستهلاك الآدمى وتآكل فى التربة الزراعية وتزايد فى الفجوة بين الأغنياء والفقراء سواء داخل المجتمع الواحد أو بين المجتمعات، مما يسبب تفاقم الأحقاد والكراهية والصراع. وفوق هذا كله فإن تزايد أعداد البشر معناه تكاثر كل ما يعيش عليها من جراثيم وطفيليات وحشرات وفيروسات. الواقع أن هناك تقديرات أكثر قتامه. منها أن البنك الدولى يشير فى إحدى دراساته إلى ١٤ مليار نسمة ! هناك من يحاول أن يجيب على السؤال منذ مائتى سنة، توماس روبرت مالتوس(١٧٦٦–١٨٣٤م) – عالم وفيلسوف اقتصادي، نشر سنة ١٧٩٨م دراسة عنوانها "بحث فى التزايد السكانى وأثره فى إمكانية تحسين المجتمع الإنسانى" ويتضمن العنوان أيضا الرد على معارضى مالتوس (جودوين ١٧٥٦–١٨٣٦م، وكوندورسيه ١٧٤٣–١٧٩٤م) خلاصة أفكاره هى أن سكان الأرض سوف يتزايدون بمتوالية هندسية بينما الموارد تتزايد بمتوالية عددية، وأن هذا سيؤدى إلى تفشى الحروب والجريمة والأوبئة، إلا أن هذه الشرور

ضرورة لابد منها لإيقاف هذا التزايد المهلك. أى أنه يجب أن يقع ما نخشاه لكى لا يقع ما نخشاه!.

ثم عاد فنشر سنة ١٨٠٣م فأجرى تعديلا يضيف أننا قد نفيد أيضا من ممارسة تحسين السلوك و "الانضباط المعنوي" - الواقع أن هذا يكفى لو أننا تداركنا أنفسنا. فالحروب والأوبئة قد تنقص أعداد البشر، إلا أنها عندما تقتل منهم أعداداً كافية سوف تترك وراءها ألوف الملايين من المرضى واليتامى وذوى العاهات والمجانين والأفاقين والمشوهين، يعيشون فى مستنقعات من الأوحال والألغام ومزارع الجراثيم. إنصافا لمالتوس فإنه لم يفته أن يذكر أن التقدم فى الزراعة والتكنولوجيا قد يعيق الكارثة وقد حدث هذا فعلا، فقط حتى متى؟ فى ذلك الوقت كان تعداد سكان أوروبا كلها بما فيهم روسيا ٢٠٠ مليون فقط، وكانوا يتضاعفون كل ٢٥ سنة، كان سكان إنجلترا يتزايدون بمعدل ١٪ سنويا تزايد إلى ٤٪ - وكان مقدرا لهم أن يبلغوا ٧٠مليوناً بعد بضعة عقود فى تقدير مالتوس، إلا انه حدث أمران فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، أنقذا إنجلترا من المصير الذى كان يخشاه مالتوس: التحسن الكبير فى الزراعة والصناعة، ثم هجرة الإنجليز بأعداد كبيرة إلى أستراليا وكندا. لم يحدث هذا لأيرلندا مثلا التى دفع بها التخلف إلى مجاعة أهلكت

٢٠٪ من سكانها برغم الهجرة، أما فى الهند فالمأساة واضحة.

سوف يختلف الحال فى العالم الصناعي،معدلات الإنجاب تتناقص والناس لا يعدون الزواج ضرورة للمعاشرة، والمجتمع "يشيخ" بفعل تطاول الأعمار ونقص المواليد، ومما يتصور أن الملايين سيحاولون التسلل من العالم الثالث إلى تلك المناطق مليون مكسيكي يتسللون إلى الولايات المتحدة كل سنة، والحكومة فقط هى التى تعترض أما أصحاب المزارع فلا. ترى أى نوع من المشاكل سينشأ فى بلد هو الآن عاصمة العالم، نتيجة للفوارق المعيشية والعرقية؟ وقد حاولت كل من الهند والصين أن تفرض حلا لهذه المشكلة، وكانت نتيجة ذلك فى أولى الحالتين سقوط حكومة أنديرا غاندى فى السبعينيات من القرن العشرين واتهامها بالفساد انتهت باغتيالها، أما فى الصين فقد أدى فرض سياسة الطفل الواحد إلى ممارسة وأد البنات قبل ولادتهن ونشوء أجيال أغلبها من الذكور الذين هم صبية مدللون ناعمون، لن يجدوا إناثا ... وحتى لو وجدوا! إن واجب الحكومة هنا هو حسن استخدام وسائل التعليم والإعلام فيما فيه خير المجتمع لكن الحكومة لن تستطيع أن تمارس تنظيم الأسرة. السؤال هو:هل يمكنها أن تصلح من مستوى معيشة الشعب بما

يجعل الآباء والأمهات يريدون أن يحافظوا على هذا التحسن؟ يقودنا هذا إلى أنظمة الحكم وممارساته. في ذلك يقول نيقولا ماكيافيللي (١٤٦٩ - ١٥٢٧م) في كتابه الأمير:

"كل أمير يرغب في أن يعده الناس رحيما لا قاسيا، إلا أن عليه أن يتجنب الإسراف في استعمال الرحمة. "كان سيزار بورجيا ١٤٧٥-١٥٠٧م يعد قاسيا، لكن قسوته هي التي جلبت الاستقرار وأقرت النظام في روما، ووحّدتها ونشرت فيها السلام والولاء. إذا اعتبرنا هذا أمرا طيبا، فإننا سنجده إذن أرحم بكثير من حكام فلورنسا الذين جلبوا الخراب على بستوريا لكي يتجنبوا الاتهام بالقسوة. على الأمير إذن" ألا يهمه أن يوصف بالقسوة إذا كان يمارسها بهدف الإبقاء على وحدة شعبه" .

لكن الانفراد بالسلطة يغري دائما باستبداد سلبياته أكثر من إيجابياته،عشاقها يستخدمون العنف للاحتفاظ بوظيفتهم الجديدة لأنهم لا يصلحون "إلا لها" كما قال أبو العتاهية، (٨٢٥ - ٧٤٨م) أما الحروب، فهي طبقا لنظرية جورج أورويل (١٩٠٣- ١٩٥٠م) : الحرب في الخارج هي السلام في الداخل!

الانتقال إلي المستقبل :

إذا كان تحرير المستقبل من الماضي سيكون عن طريق

الخـروج من كـوكب الأرض، فـمـاذا عن مـسـتـقـبل من "سيتخلفون" فيه؟ هذه نظرة سريعة على مـا أسماه الزعيم الصيني الراحل شواين لاى :ريف العالم .

الهند والصين

الذى يجعل هذين البلدين ينضمان معا في نطاق هذا الحديث، أى يمثلان بقعة متميزة على سطح الأرض هو أن بينهما أموراً مشتركة كثيرة، مع وجود فوارق كثيرة أيضا، لكن الفوارق لا تزال تجعل المصير الحضارى واحدا .

يقدر الخبراء أنه بمجيء سنة ٢٠٢٥م سيكون تعداد كل منهما قد أصبح مليارا ونصف المليار، وأن المجموع – وهو ثلاثة آلاف مليون – سيبلغ إذ ذاك ٣٥٪ من مجموع سكان العالم وأنه لا تسود فى أى منهما ديانة من الديانات السامية – نسبة إلى سام بن نوح– الثلاث، وبالتالى فإنه – من جهة – يمكن لأى منهما أن تكافح من أجل الحد من التكاثر بوسائل لا تسمح بها دولة مسلمة مثلا، وقد فعلت كل منهما ما فى وسعها فى سبيل ذلك ولا شك أنه قد تحققت نتائج لا نراها الآن . ...

بعبارة أخرى،إذا كان التحول (ولن نقول التقدم) الذى اجتازته نمور شرق آسيا احتذاء لنموذج الغرب الأوروبى والأمريكى، وإذا كان هذا النمط من الحياة جاءت به الصناعة

من الوجهة العملية،والبراجماتيه من الوجهة الفكرية، فالنتيجة هى أن الحياة فى الغرب أصبحت تتميز فى هذا المجال بدرجة غير مسبوقة من الحرية الشخصية سواء للرجل أو المرأة، وأصبح سلوك المرأة البالغ أمرا يخصها وحدها لا حق لأسرة ولا لحكومة ولا لمجتمع أن يسائلها فيه برغم انتشار المذاهب المسيحية فى كل أوروبا وأمريكا . مثل هذا التحول السلوكى جاء لبلدان النمور بسهولة تامة فى غيبة عقيدة دينية تنص على العقوبة فى الدنيا والآخرة لكل من ينتهج هذا السلوك. وفيما نظن فإنه فى المجتمعات الإسلامية يقف الزعماء والمفكرون موقف الاعتراض من التحديث لأنه حتى لو نجحنا فيه فإنه سوف يأتى بهذا النمط من الحياة، وإن كان من السهل أن يأتى رأى مضاد ليقول إنه لو كان الرخاء يعم بلدانا هى الآن فقيرة، لجرفها هذا التيار كما حدث فى أوروبا حيث الديانة السائدة تتعارض معه ، ومما يعطى قيمة لهذا الرأى أن المترفين فى بلادنا ينقادون للتيار الغربى السائد بفضل ما فى جيوبهم من وسائله.

من الخطأ أن ننكر أن هذين البلدين لا يفتقران إلى الذكاء، وهو نوع الذكاء الذى يؤدى إلى الجدية وليس إلى الهزلية التى تسود أغلب بلدان العالم الثالث والتهريج والفساد الذى هو شريعة الإدارة الحكومية فى غالبيتها ،كما أن كلا منهما قدم للعالم صفا طويلا من الحكماء والعلماء

والأساتذة والباحثين، وأن فى كل منهما جامعات راقية ومتطورة، لكن الشروط هى: دخل يحصل عليه الفرد من نشاطه يعادل ما فى بقية العالم المتقدم، درجة قصوى من الحرية الاجتماعية والفكرية والسياسية (هذه الأخيرة لا تزال فى دور التطور فى بلدان النمور) ثم نسبة دنيا من "المعالين" أو الذين هم عالة على غيرهم أو على المجتمع سواء بسبب صغر السن أو البطالة أو العجز أو الأمية المهنية (وليس التعليمية) وهذا بالطبع سيكون متضمنا فى المعيار الأول وهو دخل الفرد. إذا لم تتوفر هذه الشروط فإن النمر سيجد نفسه قابعا داخل جسم فيل هائل الحجم يحاول أن يقفز فيعجز، ويضطر للاعتماد على خرطومه مرة أخرى، وتستوى الهند والصين فى ذلك مع اختلاف النظامين.

العالم الإسلامي :

تتميز الشريعة الإسلامية من دون جميع الشرائع بنصوص كاملة ومحققة من القرآن الكريم والحديث والسنة، وبأن هذا الميثاق المقدس المتكامل يضم أمور الدنيا مع أمور العبادة،فهى لا تأتى بمجرد أحكام العبادة – وهى علاقة الإنسان بخالقه – بل وأحكام المجتمع والحياة أى علاقة الإنسان بغيره من الناس، فالقران ينص فى وضوح قاطع على أحكام الزواج والطلاق والإرث ومعاملة النساء. بحيث لا يسهل على أى فرد كان أن يعترض على أية محاولة لتغيير

هذه الأوضاع . أضف إلى هذا أنه بخلاف دول الخليج الست - والتى تنعم بمستوى معيشة متميز ينتج عن الثورة البترولية وحدها، وهى ما تشاركها فيها أربع دول إسلامية أخرى على الأقل - بخلاف هذه الدول فإن مستوى المعيشة فى أدنى المستويات العالمية، والبطالة منتشرة بين الشباب ومعها إحساس قاتل باليأس والحرمان. المشكلة هنا هى أن هناك رفضا قاطعا لأفكار الديمقراطية والدولة العلمانية من أساسها، ومعها كل مايأتى مع الرأسمالية واقتصاديات السوق. ومع الرفض المتزايد للحضارة المعاصرة - وهو أمر ليس عسيرا لمن يريده مع تداعيات هذه الحضارة - فأى مذهب سياسى تمكن يا ترى الدعوة إليه؟

الماركسية لم تفشل فحسب، بل هى فى هذه المجتمعات الكفر بعينه. الفاشية تستلزم "شيئا" يمكن الالتفاف حوله أو "بطلا" يستحق أن يعبد من دون الله . الديمقراطية مرفوضة أصلا كجزء من حضارة الغرب فضلا عن صعوبة - أو ربما استحالة تطبيقها فى دول فقيرة مرتفعة الأمية ومتضخمة التعداد فماذا بقى؟ الحاكم الذى هو ظل الله على الأرض، وهو ليس فى حاجة للدفاع عن منظومة الحكم التى يستخدمها، فهى ليست سوى شرع الله، كما يراه هو والمحيطون به.

إفريقيا :

الرافضون للحضارة الأوروبية ولنمط الحياة الذى جاءت به، يحبون دائما أن يركزوا على سلبياتها: المخدرات والإيدز ناسين أن المخدرات ليست شيئا جديدا على البشرية.

ثم هناك آفة الانتحار وآفة الطلاق، السويد لديها أعلى نسبة انتحار في العالم، وفى أمريكا نسبة الطلاق ٥٠٪ أو ربما أكثر . هنا أيضا ينسون أن اليأس من الزواج واليأس من الحياة ينتشران فى كل أنحاء العالم ولو كانت المرأة الإفريقية تستطيع أن تحصل على الطلاق من زوج تجده كريها، أو تتخلص من حياة لا تحتمل، أو أن المرأة السويدية وجدت نفسها تعيش ظروف المرأة الإفريقية، لكان منظر العالم قد اختلف كثيرا.

عندما نتحدث عن إفريقيا فنحن نستبعد ساحلها الشمالى فهذه دول عربية وإسلامية، كما نستبعد دول جنوب أفريقيا فهذه لا تزال مجتمعا ينتمى لحضارة أوروبا وإن كان مواطنوه الإفريقيون فى حال تختلف عن حال البيض طبعا. نحن إذن نتحدث عن إفريقيا السوداء كما أسموها، تلك التى صاح بها الفيتورى منذ أربعين عاما فى ديوانه "أغانى إفريقيا" :

إفريقيا ! إفريقيا ! استيقظي !

واستيقظت، ويا لها من صحوة من حلم جميل،علي كابوس الواقع الثقيل ....

حدود الدول جاءت من مغامرات المستعمرين وهي ليست قبلية ولا ثقافية، وهكذا فهي تضم الهوتو على التوتسي لكي يأكل بعضهم بعضا. من الظلم أن نقارن بين المرأة الإفريقية ونظيرتها الأمريكية مثلا التي قد يفقد وزير الحربية وظيفته لو ثبت أنه فوت عليها فرصة الترقي إلى وظيفة قائد القوات الجوية أو رفض قبول النساء في وظائف من نوع مدرب كاراتيه أو طيار مقاتل،لمجرد أنهن نساء . دعونا نقارن إفريقيا بدول كانت هي أيضا مستعمرات إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، متوسط الدخل السنوى للفرد في النيجر(٣٠٠) دولار سنويا، في سنغافورا(٩٢٠٠)، نسبة الأمية في النيجر٨٦٪ في سنغافورة١٤٪ متوسط طول العمر في النيجر (٥٤) في سنغافورة (٧٣) – اكتشف الأوروبيون أمصال الملاريا وغيرها من وسائل مكافحة الأوبئة التي تفتك بأطفال إفريقيا،مما حدد كثيرا من وفيات الأطفال بالطبع، لكن النتائج دائما سلبية،على مدى نصف قرن زاد تعداد سكان إفريقيا إلى ثلاثة أضعاف حيث أن التناسل هو مصدر الفخر الوحيد، والإيدز ينتشر بين رجال يصرون على أن هذا

الداء المخيف يأتي من العفاريت. التعليم يتمثل في مقارنة أخرى مع اليابان هذه المرة،حيث عدد العلماء والمهندسين لكل مليون فرد هو (٣٧٠٠)، نظيره في إفريقيا(٥٣) الولايات المتحدة تنفق ٢٠٠دولار سنويا للفرد، على جهود البحوث والتنمية، هذا الرقم في إفريقيا ... دولار واحد للفرد. بمجيء سنة ٢٠٢٥م ستكون كل هذه الأرقام أسوأ بكثير مما هي عليه الآن .

خريطة العالم :

يبدو عالم الغد إذن على هذه الصورة : النصف الشمالى من الكوكب وله ملحقات فى نصفه الجنوبي، حضاراته مستمدة من المعرفة واستخداماتها البراجماتية من أجل حياة قوامها حرية غير مسبوقة سواء للرجل أو المرأة، كل منهما يفكر ويتحدث كما يشاء فى أى موضوع، ويتصرف فى حياته الخاصة كما يشاء، واستمتاع غير مسبوق بالحياة الفكرية والعلمية والفنون والجماليات. الفئة الثانية تدخل معه فى سباق من أجل هذه القيم ذاتها، لكنه سباق الأفيال مع النمور، وبرغم الجدية التى تستحق التقدير فإنه فى حلبة السباق لا يستطيع الجرى إلا الحصان الطليق وليس المربوط فى عربة جر ثقيلة . الفئة الثالثة : لا تدخل السباق لأنها ليست راغبة فى نتائجه لأسباب عديدة على رأسها المرأة فهذه

ليست لها حقوق لأنها هى بأكملها ليست سوى أحد حقوق الرجل ، إن كانت الأولى تنال كل ما تعطيه الدنيا ، والثانية تظل تحلم بذلك، فإن الثالثة عزاؤها الآخرة .

المعرفة بالماضى ؟ بالمستقبل ؟

قد تكون المعرفة هى المتغير المستقبل الوحيد الذى يمضى فى طريقه مستقلا وجاعلا كل شىء آخر يتغير تبعا له. وإذا أردنا تلخيص تاريخ البشرية كله فى جملة واحدة متصلة فهى هذه: المعرفة تتزايد وتأتى بوسائل جديدة لمعالجة الطبيعة ، وتنتج عن ذلك تطورات اقتصادية تغير موقف الناس من الكون ومن بعضهم البعض ، النساء والصغار يصبحون أكثر قدرة على الفكاك من أسر القبيلة ثم الأسرة (ولعل التسمية ليست مصادفة) فتتغير قواعد المجتمع وأخلاقياته، ما كان حراما قد يصبح حلالا وبالعكس، وتتغير وسائل الإعلام وأساليبه فتتغير علاقة الحكومة بالشعب الذى لم يعد ممكنا الرقابة على ما يعرفه أو يفكر فيه أو يقوله بسبب ما جد من وسائل الاتصال. تنشأ أساليب جديدة فى السياسة والحكم. يؤدى كل هذا إلى جديد فى المعرفة والفنون وهكذا... هذه هى دورة التطور فى الإنسان، إنه لا يتطور عضويا ، بل يتطور فى ما يدور داخل رأسه وما ينتج عن ذلك من وسائل جديدة ، من قطعة الحجر التى كان يستخدمها فى تكسير جوز الهند،

إلى مركبات صاروخية إلكترونية يجوب بها "آفاق الفضاء زمن" ، في نسبية لا قرار لها.

يقول أحد كبار علماء الفلك في القرن العشرين، كارل ساجان (١٩٣٤م) :

إن العلم ... لا ينتهي أبد، إنه يمضي على هيئة تقريبات وتعديلات، مقتربا أكثر فأكثر من إدراك أكثر دقة واكتمالا للطبيعة، لكنه يدل أكثر من أي شيء آخر على أن الطريق لا يزال طويلا جدا.

والعلم دائما عرضة للجدال والنقاش، والتصحيح والتلميع، وإلى إجراء مراجعات مضنية واستكشافات ثورية إلا أنه يبدو أنه يوجد الآن ما يكفي للغوص في أعماق الماضي واستنباط المراحل التاريخية التي أدت بنا إلى أن نكون ما نحن عليه الآن .

إن الأرض تعج بالحياة .كائنات تمشي وتنط وتطير وتنزلق وتعوم وتسبح وتقبع وتتساقط وتتصاعد وتزحف. ليست هناك ذرة من التراث أو قطرة من الماء أو نفخة من الهواء إلا مثقلة بالكائنات الحية .

منذ ثلاثة آلاف مليون سنة، كانت الحياة قد غيرت ألوان البحيرات، ومنذ ألفي مليون سنة، غيرت جيولوجيا الكوكب ومظهره كما يبدو وسط الكون. كل هذا بتأثير كائنات دقيقة،

وكل هذا والأرض تدور حول نفسها وحول الشمس وتشق طريقها وسط المجرى اللبنى مرة كل مائتين وخمسين مليون سنة، وهى لا تدرى شيئا عن الحياة التى تعج بها. إن الأرض يمكنها أن تمضى فى طريقها سواء كانت على ظهرها كائنات حية أم لم يكن، فالحياة توجد فى قشرة رقيقة من سطحها . من هذه الكائنات : ونحن أفنينا ما لا يقل عن مليون نوع من الكائنات فى بضع عشرات السنين، كائنات تلونت على مدى أربعة آلاف مليون سنة . فالبشرية تشبه الشباب السفيه الذى ورث ثورة طائلة ولا عمل له إلا تبديدها

تتكون الجزئيات العضوية من عنصر الكربون ومن ذرات أخرى. كل ما على الأرض من حياة مكوّن من جزئيات عضوية كربونية . من الواضح أنه كان لا بد لها من أن تتكون من قبل أن تبدأ الحياة. ومثل الماء، جاءت الجزيئات العضوية من باطن الأرض ومن الفضاء معا. كان الغلاف الأرضى المبكر مشحونا بالأشعة فوق البنفسجية وبالرياح القادمة من الشمس وبإشعاعات مصحوبة بأجسام تصدم الأرض تاركة عليها حفرا كالتى نراها الآن فوق سطح القمر. ولما كانت الأجرام الكونية - كالمذنبات والكويكبات السيارة - تحمل فى طياتها مقادير كبيرة من المواد العضوية، يمكننا أن نحدس أن الأرض قد تلقت مطرا غزيرا من المواد العضوية فيما نقدر

أنه كان يتساقط عليها فى مرحلة ترجع إلى أربعة آلاف مليون سنة، ولعله أسهم فى إيجاد الحياة على سطحها . كان القمر يسطع ولا بد أنه كان مشهداً خلابا، فقط لم يكن هناك شعراء ولا عشاق يتغنون به . ومما تدل عليه عينات من المواد العضوية الآتية من جرينلاند، قد تكون الحياة قد وجدت بشكل أو آخر منذ ٨, ١مليار سنة .

منذ عشرة آلاف جيل، كان أسلافنا ينقسمون إلى عديد من الجماعات الصغيرة، وكان الصراع - كما يقول هرقليطس (٥٤٠ - ٤٨٠ ق.م) - يؤدى إلى بقاء الأقوى والأصلح، كان سبيلاً للارتقاء ولظاهرة الانتقاء الطبيعى . أما الآن فإنه ليس فى استطاعتنا أن نسلم الأمور لهذه العملية الطبيعية، فهذا يستغرق وقتا أطول مما هو متاح لنا . علينا أن نستخدم ما لدينا من أدوات لكى ندرك حقيقتنا ونعرف هويتنا.. من نحن، وكيف أصبحنا ما نحن عليه ؟ كيف يمكننا أن نتغلب على أوجه الضعف فينا ونخلق مجتمعنا أقل احتمالا لأن يُظهر أسوا ما فى أعماقنا .

بهذه المقتطفات، يدلنا ساجان هذا الفلكى الفيلسوف الذى أسهم بجهد علمى عظيم فى إطلاق سفن فضاء فايكنج وماريني، يدلنا على أن العودة إلى الماضى وتنظيف أرضياته المعرفية من قمامة التخلف والتعصب، ضرورة محتومة للتحرك

إلى المستقبل ودخول آفاقه وهو يتبع هذه الفقرات بهذه الأبيات يقتبسها من أوديسا هوميروس (التاسع أو الثامن ق م) .

هكذا كلمتنى ، وانتابني الحنين
لأن أحتضن صورة أمي الراحلة
ثلاث مرات حاولت أن أطبق
علي خيالها وهو ينفلت
بين أصابعى ، كأنه
ظل لا حقيقة له ، كأنه حلم .

من الوجهة الأدبية

الواقع أن تحرير المستقبل من الماضى أو فك الاشتباك بين الزمنين تشغل مفكرينا فى شرقنا العربى الإسلامى منذ أكثر من قرن ونصف قرن، فنحن لا نحب أن نلغى شخصيتنا ونذوب فى شخصية الآخرين، وفى الوقت نفسه فإننا نستخدم اختراعاتهم واكتشافاتهم فى حياتنا اليومية ومن أحدثها على سبيل المثال إطلاق أكثر من قمر عربي.

ومن ناحية أخرى فمصدر القضية أن كل قديم فيه ألفة لا نستطيع التخلص منها بسهولة وكل جديد فيه غرابة لم نتعودها ، هذه طبيعة الأشياء، لكن طبيعة الأشياء أيضا أن يحمل الجديد بذور التمرد على القديم - وإن أخذ منه -

ليصبح له شخصيته، فهذه دلالة الحياة وقانون التطور. وقد ينطوى هذا الجديد على مبالغة وتطرف لا يحد منها إلا ذوبان القديم والجديد معا للوصول إلى شكل جديد يعبّر عن مضمون الحياة الجديدة .

مقاومة التجديد بين الصحة والمرض:

إن أى تغيير يقابل عادة بمعارضة قوية من المجتمع، وهذا أمر لا غرابة فيه، فهو دليل على تماسك الجماعة وعدم استسلامهما المتسرع أمام أى عنصر جديد قبل أن تمتحنه، فإما أن تقضى عليه وحينئذ يتضح أنه لم يكن سوى بدعه، وإما أن يثبت أنه نابع من حاجتها التى لا مفر منها لتطورها إذا أرادت ألا يكتب لها الموت. وتختلف الجماعات من حيث مدي رفضها أو تقبلها للجديد ،فهى إذا تقبلت كل جديد دون معارضة كان معنى ذلك أنها عرضة للانحلال وذوبان شخصيتها، وإذا قاومت كل جديد أيا كان فمعنى ذلك أنها تتحجر وتحكم على نفسها بالفناء من حيث ظنت أنها تحافظ على نفسها. إن معارضة الجديد فى المجتمع الصحى تجعله فى حالة أشبه بحالة الحمى حين يواجه الجسم عنصبرا دخيلا، فإذا تقبله المجتمع فإنه يصبح بمثابة مناعة له تحصنه مما يهدده من عناصر الموت.

مشكلة التحديث أو المعاصرة:

ولعل أهم مشاكل التحديث هو وجود فجوة دائمة بين المبدعين العباقرة وجمهور المتلقين، فالمتلقى يتذوق الأعمال الفنية من خلال تقاليد تربى عليها منذ طفولته وهى تقاليد استقرت ورضى عنها المجتمع، أما المبدع فمهمته أن يضيف جديدا إلى هذه التقاليد السائدة وذلك من خلال محاولته تناول قضايا عصره بأسلوب معاصر مما يصيب بالدهشة جمهوره المعاصر وعليه أن ينتظر على الأقل جيلا جديدا ينشأ وقد ألفت حواسه هذه الأساليب الجديدة فيستطيع تتبعها ويحاول تذوقها وتقديرها والاستمتاع بها إن أمكن . فتذوق الأعمال الفنية خلال قوالب مألوفة أيسر من تذوقها خلال قوالب أكثر معاصرة.

فالقوالب المألوفة جزء من تكوين شخصية المتلقى ومن شأن القوالب الحديثة أن تهز هذا التكوين المستقر، وما لم تكن الشخصية من المرونة بحيث تستطيع أن تطور نفسها وتتهيأ لتقبل هذا الجديد فإنها تعتبره بمثابة تهديد جدى لها، عليها أن تقاومه أو تتجاهله، وهما موقفان - كل منهما بالنسبة للفنان - أسوأ من الآخر. وتلك هى مهمة الناقد المخلص الذى يوهب قرون استشعار مرهفة : أن يتعرف أولا على تلك الأعمال الجديدة التى سيعقد لها لواء الصدارة فى

المستقبل القريب بعد أن يتميز صحيح الجديد من زائفه، ثم يعمل على تقريب الفجوة القائمة بين المبدع والمتلقى المتعاصرين فيقلل من دهشة المتذوق الذى يستمتع بأعمال فنية عبَّرت عن غير عصره بينما يقف حائراً أو رافضاً بل مهاجما عملا أبدعه معاصروه يتناول فيه إحدى قضايا عصره بأسلوب يتفق ومضمون هذه القضية.

بهذا يختصر النقد مسافة الزمن ويخلُق للفنان جمهوره مما يشجعه على أن يستمر بدلا من تركه فريسة تذوق جمهور مثبط معاد قد يحمله على التوقف أو العودة إلى الأساليب الفنية التقليدية، مؤثرا السلامة ومتملقا جماهير ترشوه بشهرة سطحية زائفة مؤقتة.

أخطار التجديد :

وإذا كانت تلك هى مصاعب التّجديد - أو تحرير المستقبل من الماضى - التى يلقاها المبدع من جانب جمهوره فلا شك أن للتجديد أخطاره من جانب المشتغلين بعملية الإبداع أنفسهم نتيجة لظن بعضهم أن التحرر من قيود القديم معناه التحرر من كل قيد أو قاعدة فيكون إنتاجه أقرب إلى الفوضى والهراء، أو إسراف فى التعقيد والغموض، وهكذا يتسلل كثير من الأدعياء على نحو ما حدث فى الفن التشكيلى أو الشعر وربما بصورة أقل فى القصة والمسرح والفنون الأخرى،

فالناظم الذى يثور على الشكل القديم لمجرد صعوبته ليس شاعرا صادق الشاعرية، أما الشاعر الصادق فهو الذى يتخذ الجديد لا لسهولة مزعومة فيه، بل لما يتيحه له هذا الشكل الجديد من إمكانات إيقاعية وفكرية وعاطفية لم يعد الشكل القديم يستطيع النهوض بها. فالفرق بين صعوبة الشكل القديم وصعوبة الشكل الجديد هو فى صميمه الفرق بين أغلال العبودية ومسئولية الحرية. أغلال العبودية قيود مفروضة من الخارج على الفنان وعلى عمله الفنى تخمد روحه وتجمده فى قوالب وشكليات مسبقة، أما مسئولية الحرية فنابعة من إحساس الفنان بحقه فى اختيار الوسائل وإبداع الأساليب التى تعمل على تطوير أعماله الفنية وإثرائها.

فالأشكال الجديدة لا تحرر من القيود إطلاقا بل من قيود مستهلكة لتخلق قيودها الجديدة الخاصة بها، ولا يفطن المعترضون على التجديد إلى هذه الحقيقة فيقيمون اعتراضهم على أساس أن الشكل الجديد قد تحرر من كل القيود وأن أصحابه أكسل من أن يُخضعوا أنفسهم لقيود الشكل التقليدى التى يبدو أنهم لا يريدون أن يعترفوا إلا بها .

لقد علّمنا تاريخ الأدب أن الأشكال الأدبية تحتاج من حين لأخر إلى إعادة صياغتها من جديد بل هى أحيانا تختفى لتبعث فى صورة جديدة، وكل ما تولّد خلال التاريخ الادبى

معناه قبوله أو إبداعه لقيود تميزه عن لغة الكلام المتداول، والظن بأن الفوضى أسهل من قيود الشكل وهم تام وإلا لكان الضرب فى متاهات الصحراء أو حتى فى حديقة غناء أسهل من السير على هدى طرق معبده وإشارات مرور متفق عليها.

فالشكل نظام وليس قيدا، واللاشكل فوضى وليس حرية. والنظام ليس قاصرا على القديم بل يشمل الجديد أيضا وإن اختلف عن نظام الأشكال التقليدية. وتمرد الجديد على القديم ليس تمردا على النظام بل هو تحرر من شكل لاءم عصره واستنفد أغراضه لإبداع شكل أكثر ملاءمة لمقتضيات ما جد من أوضاع.

حدود التجديد :

لكن التجديد ليس متاحا فى كل عصر بدرجة واحدة كما أنه لا يعتمد على التكوين الشخصى فقط للأديب بل إن العصر الذى يعيش فيه بأوضاعه الاجتماعية وتقاليده الأدبية عامل هام فى درجة التجديد، فهناك زمن لاستكشاف أرض جديدة وهناك زمن لاستثمار الأرض التى اكتشفناها، أى أن هناك عصورا يحتاج فيها الأديب إلى إدخال تغييرات جذرية ثورية ويتاح له ذلك، وهناك عصور تفرض على أدبائها تطوير التقاليد الأدبية السائدة.

ومع ذلك فيجب ألا نغفل قيمة العامل الشخصى فى

التجديد، فهناك أدباء أقدر من غيرهم على استشعار حاجة الأدب فى لحظة تاريخية معينة إلى التجديد الجذري. وفى إمكانهم تلمس الاتجاهات الجديدة وتفجيرها، هؤلاء نطلق عليهم لقب "الرواد" و "أصحاب المدارس والمذاهب الأدبية" . ويأتى بعدهم تلاميذ ومريدون يتفاوتون بين مجرد التقليد ومحاولات التطوير والإضافة والوصول إلى درجة أكثر نضجا حتى يستهلك الشكل الجديد بدوره كل طاقاته فيقع مستخدموه فى خطر التكرار.

ويأتى التكرار نتيجة حتمية لاستخدام الأشكال المستهلكة والتى تدفع من يستخدمها - شعوريا أو لا شعوريا - إلى التقوقع فى المضامين المستهلكة لأن مجرد اختيار أحد هذه الأشكال يستدعى فى الذهن عشرات القصائد أو القصص التى أرست دعائم هذا الشكل الأدبى فيلقى بظله على الأديب ويدفعه إلى ترديد العبارات المحفوظة والصور المعادة ويحده عن الانطلاق إلى ميادين جديدة. فالأشكال القديمة تصل إلى درجة من التشبع لا مزيد بعدها ولا يكون معنى ذلك أن الوقت قد حان للارتداد إلى أشكال أكثر قدما، بل معناه أن الوقت قد حان للتقدم إلى شكل أكثر مسايرة لما جد من أوضاع .

الشعر كنموذج تطبيقي :

ولعل الشعر فى أدبنا العربي، خير مثال على ذلك، فله

تاريخ طويل يمتد إلى أكثر من خمسة عشر قرنا ، وهو فى معظمه شعر غنائى يعتمد وزنه المتساوى التفعيلات فى كل شطر من شطرى كل بيت ووحدة قافيته وجرس ألفاظه واكتمال المعنى فى كل بيت على أنه يُلقى ولا يُقرأ، وكان هذا طبيعيا فى وقت لم تكن الطباعة قد انتشرت فيه بعد.

فلما اخُترعت المطبعة وتضاءل دور الاستماع إلى الشعر لتحل القراءة محله كان لا بد للشعر من تطور يلائم الأوضاع الجديدة بحيث وصل الأمر أحيانا إلى أن يحل الاعتماد على طريقة كتابته وطباعته مكان الاعتماد على ألفاظ ذات رنين خاص بغية التأثير فى العين قبل الأذن. وقد استتبع ذلك بالضرورة تغييرا فى اختيار الموضوعات التى تكون أكثر ملاءمة لجمهور قادر على تعلّم القراءة وعلى شراء الدوريات التى تنشر الشعر من بين موادها أو على شراء دواوين الشعر نفسها.

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لتجديد الشعر العربى المعاصر، بل كان التطور اللغوى أيضا من بين هذه الأسباب. فكما كان الشعر العربى التقليدى قريبا من لغة الكلام المتداولة فى عصر ما قبل الإسلام فإن الشعر العربى المعاصر يحاول أن يجدد نفسه بحيث يكون قريبا من اللغة العربية الفصحى المتداولة بين المثقفين العرب اليوم. لقد توارت

مفردات وبرزت مفردات أخرى بحكم تغير البيئة والتطور الحضاري، لهذا يتخفف أسلوب الأداء الشعرى الجديد من عبء الألفاظ المعجمية المهجورة ولا يغرق فى الجماليات الشكلية التى انتهى إليها الشعر التقليدى فى عصور انحطاطه كالجناس والطباق والتورية وما إليها .

كذلك لم يعد الشاعر العربى المعاصر ملزما بذلك التماثل الذى كان يلتزم به أجداده فى قصائدهم، وهى هندسية نجد مثيلها فى فن الزخرفة العربى الذى يُعرف بالأرابيسك، حيث تتكرر الوحدة الزخرفية فى نظام تماثلى ، فلم يعد البيت ينقسم إلى شطرين تتساوى فيهما التفعيلات، وأصبح من حق الشاعر أن يزيد أو يُنقص من تفعيلاته فى كل بيت طبقا لما يحتاج إليه المعنى. ولم يعد الكثير من الشعراء الشبان يُلزمون أنفسهم بقافية موحدة من أول القصيدة إلى آخرها بل يستخدمونها كما يستخدمون التفعيلة طبقا لطبيعة التجربة أو الموقف وطبقا لتصور كل منهم لمهمة القافية فى القصيدة . كذلك حل ما يسمى بالوحدة العضوية للقصيدة محل المعنى فى البيت، وأدخل ذلك تغييرا جذريا على الصورة الشعرية، فبعد أن كان النقد يقسمه إلى رثاء وهجاء ومدح وعتاب وفخر وزهد.. إلى أخره، أصبح العنصر الدرامى أساساً فيه ، وأمكن تتبع خط قصصى فى كثير فيما يقدمه الشعر العربى

اليوم . ونتيجة لذلك استطاع الشاعر العربى المعاصر ألا يحصر نفسه فى القصيدة الغنائية وينطلق إلى فنون أدبية أخرى لاسيما المسرح الشعرى الذى بدأ فى أوائل القرن العشرين على يد شاعر مثل أحمد شوقى فجاء أقرب إلى الشعر الغنائى منه إلى الدراما الشعرية، حتى إذا ما تغيرت القيود التقليدية استطاع شعراؤنا أن يقدموا مسرحا أقرب إلى العمل الدرامي وذلك على نحو ما نجد فى مسرح شاعر مثل صلاح عبد الصبور وعبد الرحمن الشرقاوى .

التقليد والتجديد وجهان لعملة واحدة :

يتضح من ذلك أن المسألة ليست على هذا النحو الساذج: إما تعصب للماضى أو تعصب للمستقبل . فكلا الموقفين خطأ وينم عن تبسيط شديد للأمور . فتقدير الجديد لا يأتى إلا نتيجة لإتقان دراسة القديم وتذوقه،كما أن التجديد هو الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالقديم. فالماضى والمستقبل لا يستغنى أحدهما عن الآخر.

إنهما كوجهى العملة كما يقال فليس المجدد هو من يجهل القديم أو لا يستطيع تذوقه بل هو من أتقن دراسته وتذوقه ثم تجاوزه لأن مهمته أن يضيف، وأن يضيف كيفا لا كما، وهو لا يستطيع أن يضيف إلى عدم سبقه، أى أنه لا يبدأ من الصفر. لا تجديد إذن بدون معرفة القديم. فالتجديد يخرج من

صلب التقليد والمعاصرة لا تولد إلا من الأصالة.

ومن ناحية أخرى لا بقاء للماضي دون المستقبل، تماما كما أن الجيل الجديد هو الذى يُبقى على ذكرى الجيل الذى أنجبه. وإذا أصيب جيل بالعقم فإنه لا يحكم بالفناء على من بعده فحسب بل ويحكم بالفناء على نفسه أيضا. فإذا كان من الصحيح أنه لولا الأجداد ما كان الأحفاد فإنه من الصحيح أيضا أنه لولا الأحفاد ما بقيت ذكرى الأجداد، وهكذا فإن الماضى والمستقبل مدينان بوجودهما لبعضهما لأن كلا منهما يهب الحياة للأخر (١).

---

(١) راجع الجانب العلمى من هذا البحث الصديق الراحل المهندس والأديب محمد الجندى مترجم إلى العربية رسالة دكتوراه كيث فكتوريا ماكدونالد دانيلز: مدركات النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى، من معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن.

القبلية والفردية
بين اليهودية والمسيحية

موضوعنا يتصل بعلم يُعرف بعلم الأديان المقارنة ، ومعناه مقارنة دين بآخر ، وذلك للكشف عن بعض النواحي الغامضة أو التعرف على الأصول التاريخية لمختلف الأديان. كما أن هناك علم النفس المقارن وعلم الأدب المقارن.. فمثلاً نجد قصة الطوفان فى ديانات لا نجد دليلا تاريخيا بين أيدينا يدلنا على صلتها بالديانة اليهودية ، ففى أمريكا الجنوبية يعتقد الهنود من أهل إقليم اسمه "كندياركا" أن امرأة الرجل المقدس بوشيكا أولعت بالسحر وأصغت إلى وسواس الشيطان فأخرجت نهر "فونخا "Fungha" عن مجراه وأغرقت الإقليم كله بإنسانه وحيوانه ونباته ، ولم يعتصم منه إلا من تبع بوشيكا إلى الجبال. ثم عاد بوشيكا فجمع قومه وعلَّمهم عبادة الشمس ثم أسلم الروح .

وقصة الطوفان عند المكسيكيين المعروفين بالشيشميين تقول إن العصر الأول من عصور الخليقة – وهو المسمى عندهم بعصر أتونانيو – أى عصر شمس الماء – قد انتهى بطوفان جارف نجا منه رجل اسمه "تربي" وزوجته "ششكتزال" ، وكانت نجاتهما على زورق مصنوع من خشب

الصفصاف. كما يروى أهل بيرو قصة الطوفان ويجعلونها فى زمن ملك من ملوكهم يسمى "ناناشنس" ويسمون البلد الذى لجأ إليه الهاربون من الطوفان باسم "كيبوتس" ومعناها السفينة فى لغة الفريجيين. ويعود الإغريق بقصة الطوفان إلى عهد أوجيج (وجا بالسنكريتيه معناها الطوفان) ، وعندهم أن الماء علا حتى بلغ السماء فلاذ الملك وخاصته بسفينة صنعها فنجا عليها من الموت. وفى رواية أخرى أن زيوس غضب على البشر فأغرقهم وعلِم برحيوس بما انتواه ، فنصح ابنه دوكاليتون أن يصنع سفينة لينجو عليها ، فصنعها ونجا عليها مع زوجته بيرها إلى جبل البرناس. ولو أننا تتبعنا هذه القصة عند مختلف الشعوب لما وسع الوقت فهى عند الهنود والبابليين وعموم هذه القصة لا تضعف الراوية الواردة فى التوراة ، بل إنها تثبت وقوعها وإن تقادم بها العهد .. لكن جاء فى الكتاب الثانى من "أخبار الصين والهند" الذى أضافه أبو زيد حسن السيرافى (فى القرن الثالث الهجرى أو التاسع الميلادي) أن رحالة عربيا من قريش يدعى "ابن وهب" خرج من البصرة عند خرابها عام ٢٥٧ هـ/ ٨٧٠ - ٨٧١م إلى الصين حيث قابل ملكها الكبير وأبلغه بقصة نوح والطوفان ، فكانت إجابة ملك الصين أن "غرق الأرض كلها لا نعرفه ، إنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا ولا

أرض الهند" (أخبار الصين والهند ، تحقيق يوسف الشاروني، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٩م ، ص ٧١) .

ولما كان موضوعنا الرئيسى هو المقارنة أو التفرقة الحقيقية بين الديانتين اليهودية والمسيحية ، فقد رأينا أن نمهد لذلك بنظرة على الفروق التى كانت قائمة بين اليهودية والديانات الوثنية التى أحاطت بها ، وذلك باعتبار أن اليهودية هى البيئة المناخية التى خرجت منها المسيحية ، وباعتبار أن الإنجيل يكمل التوراة ، ليس بمعناه الإضافى ، فقط ، بل بمعناه التطويرى أيضاً ، وقد قال المسيح "لم آت لأنقض الناموس والأديان ، ما جئت لأنقض بل لأكمل" لهذا سنقسم بحثنا إلى الأقسام الثلاثة التالية :

أولاً : مقارنة سريعة بين الديانة اليهودية والعقائد الوثنية التى أحاطت بها .

ثانياً : نقاط الاختلاف بين الديانة المسيحية والديانة اليهودية .

ثالثاً : تطور الأفكار اليهودية التى استمرت فى المسيحية.

-١-

أما فيما يتعلق بالنقطة الأولى فنحن نجد أن الديانة اليهودية فاخرت بتميزها عن بقية العقائد التى حولها بخمسة

مبادئ جوهرية هي :

١- التوحيد ٢- الإله غير المنظور ٣- الختان

٤- التضحية ٥- الانتظار

ففيما يتعلق بالعقيدة الأولى : التوحيد نجد أن اليهودية تميزت عن ديانات القبائل التى حولها بعبادتهم إلهاً واحداً ، جاء فى سفر الخروج من التوراة "لا يكن لك ألهة أخرى أمامي" فى الإصحاح العاشر، العدد٣، وهنا نلاحظ أن تطور فكرة الله لدى شعوب جنوب شرقى وشمال شرقى البحر المتوسط قد مرت بأربع مراحل رئيسة : مرحلة التعدد ثم الترجيح فالثنائية فالتوحيد. ففى دور التعدد كانت القبائل تتخذ آلهة تعد بالعشرات وقد تتجاوز المئات ، كما نرى فى مصر القديمة حيث كان هناك إله لكل منطقة ، وإله لكل وظيفة ، فهناك أنوبيس على سبيل المثال للتحنيط، وتحوت للحكمة ، وأوزوريس لمحاسبة الموتى ، وست للشر .. وهكذا . وفى اليونان القديمة - الإغريق - أبولون إله الجمال ، وديونيزبوس إله الخمر ، وديانا آلهة الرقص ، وكيوبيد إله الحب .. وهكذا. وكان الآلهة فى هذه المرحلة يشبهون الإنسان فى رغباتهم وشهواتهم ، فهم ذكور وهم إناث يتزوجون ويخونون وينتقمون من بعضهم البعض كما نرى بوضوح فى قصة الآلهة الفرعونية إيزيس وأوزوريس وحورس وست

ونفتيس. وفى مرحلة التميز والرجحان تبقى الآلهة على كثرتها لكن يأخذ رب منها فى البروز على سائرها إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة وتعتمد عليها فى شئون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلبا أعظم وألزم من سائر المطالب التى تحققها الآلهة الأخرى ، كأن يكون رب المطر والإقليم فى حاجة إليه ، أو رب الزوابع والعواصف وهى موضع خشية : مثال ذلك قصة عبادة الشمس فى مصر القديمة. فقد كانت هناك أولا ثلاث عبادات شمسية تتنافس فى المبادئ الروحية ووسائل النفوذ : فمنف تدين لإله الشمس باسم "بتاح" ، وعين شمس أو هيليوبوليس تدين له باسم "رع وأحيانا" أتوم" وطيبة تدين له باسم "آمون" . فمثلاً نجد بتاح يرتفع من صانع حاذق فى البناء والتماثيل وسائر الصناعات إلى صانع مختص بإقامة الهيكل المقدس الذى أصبح فى اعتقادهم مثالاً للعالم بأرضه وسمائه ، وما هى إلا خطوة من بناء الهيكل الذى يمثل العالم وبناء العالم كله من أقدم الأزمان أى من قبل خلق الإنسان ثم ارتفع بتاح طبقة أخرى فى مدارج الندرة والتنزه عن النظراء فأصبح روحاً مسيطرة على كل حركة وكل سكون فى جميع المخلوقات ، فهو كما جاء فى إحدى الصلوات : الفؤاد واللسان للمعبودات ، ومنه بدأ الفهم

والمقال ، فلا ينبعث ذهن ولا لسان فكر أو قول بين الأرباب أو الناس أو حتى الأحياء بل كل ذى وجود إلا وهو من وحى "بتاح". أما فى المرحلة الثالثة فتتوحد الآلهة وتجتمع فى عبادة واحدة تؤلف بينها. ويحدث فى هذا الدور أن تفرض قبيلة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها. وفى هذا الطور تنشأ الثنائية عندما يحاول الإنسان أن يفسر الشر فى الوجود بنسبته إلى إله غير إله الخير ، على نحو ما حدث فى فارس (إيران حاليا) حيث كان ثمة إله للظلام هو "أهرمن" وإله للنور هو "هرمز" ، وللأخير صفات الله ، وهذا الطور يأتى بعد التوحيد لتنزيه الإله الأحد .. هذا التوحيد نجده فى مصر القديمة أيام إخناتون الذى ألغى جميع الآلهة وأعوانهم وجهر بعبادة "أتون" أو الشمس دون سواه" فهو الحى المبدئ الحياة ، المالك الذى لا شريك له فى المُلْك ، خالق الجنين وخالق النطفة التى ينمو فيها الجنين ، نافث الأنفاس الحية فى كل مخلوق ، يسمع الفرخ فى البيضة دعاءه فيخرج إلى نور النهار واثبا على قدميه ، قد بسط الأرض مع السماء .." وقد أدهشت هذه الصلوات بعض علماء اللاهوت ومؤرخى الحقبة الفرعونية فى مصر حتى أنهم عقدوا مقارنات بينها وبين مزامير داوود النبى على نحو ما نقرأ فى كتاب "فجر الضمير" لبرستد. ويقول فرويد – وهو

يهودى وأحد مؤسسى علم النفس الحديث - فى كتابه "موسى والموسوية" ، إن موسى خرج من مصر أيام الصراع الذى كان قائما بين آمون وأتون. لكننا على ثقة من شئ واحد، أن العقيدة الإسرائيلية عاشت بعد اختفاء عقيدة إخناتون والقضاء عليها ، لكنها كانت نقطة التحول فى تطور الاعتقاد بالله الواحد بين الأمم التى تؤمن اليوم به .

أما العقيدة الثانية فهى الإيمان بأن هذا الإله الواحد غير منظور ، على نحو ما جاء فى الوصايا العشر "لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما ، مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض ، ولا تسجد لهن ولا تعبدهن ، لأنى أنا الرب إلهك ، إله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضي" (تكوين ٢٠ : ٣ - ٥) .

فنحن نجد أن ثمة قبائل لم يكن فى استطاعتها على الإطلاق تصور هذا الوجود غير المنظور ، لهذا عبدت آلهتها فى شكل أشياء تدركها الحواس ، إما من الطبيعة كالشمس والأشجار والنبات وإما من صنع الإنسان كالأصنام. ويدلنا علم اللغات على هذه الحقيقة ، حين لا نجد فى لغات هذه القبائل من الكلمات ما يدل على أمور معنوية مثل الحكمة والعدل والذكاء .. بل إن لغاتها من الفقر بحيث لا تعبر إلا عن

ضرورات الحياة المباشرة ، لكننا نجد فى بلاد أخرى حيث كان استقرار زراعى وثمة حضارة كما فى مصر ، أنهم تدرجوا من المحسوس إلى المعنوي. ويفسر فرويد ذلك أن الطفل يكون أول اعتماده على الأم التى ترضعه وتكسوه ، فإذا شب قليلاً وجد أن هناك من هو أقوى من الأم ألا وهو الوالد الذى له السيطرة على الأسرة ، فينقل اعتماده على والده الذى يظنه قادراً على كل شىء، لكن الوالد يكون مصدر رغبة ورهبة له فى آن واحد ، فهو الذى يوفر له المأوى ويعطيه الحلوى والهدايا ، وهو فى الوقت نفسه الذى يعاقبه ويحول بينه وبين ما يرغب فيه أحيانا. وهكذا يبدأ ضميره الأخلاقى فى التكون. وعندما يقارب الطفل عمر المراهقة يكتشف كذلك أن الوالد بدوره ضعيف أمام قوى الطبيعة والمجتمع ، فيثور أولا على سيطرة والده متطلعا نحو صورة كاملة ليست فيها صفات النقص المحسوسة فى والده ، وهكذا يحل الله : الكائن غير المنظور محل الوالد ، ويصبح بدوره كذلك منبع الرغبة والرهبة ، فثمة وعود وثمة وعيد ، وثمة نعيم وثمة جحيم. وهذه القوة الكاملة غير المنظورة لا يمكن أن يشوبها ضعف ولا فناء .

هكذا يفسر لنا فرويد تطور اكتشاف فكرة الله ابتداء من القبائل البدائية. ونحن نجد أن الله فى الديانة اليهودية يحرم

على شعبه إقامة الأصنام ، بل كل من يرى الله فهو موتاً يموت "فقال - أي موسى - أرني مجدك فقال : لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش. وقال الرب هوذا عندى مكان ، فتقف على الصخرة ويكون متى اجتاز مجدى أنى أضعك في نقرة من الصخرة ، وأسترك بيدى حتى أجتاز ثم أرفع يدى فتنظر ورائى ، وأما وجهى فلا يُرى" (سفر الخروج ٣٣ : ٢٠-٢٣) وعندما عاد موسى من الجبل - حيث كان يرى المشهد - وضع برقعا على وجهه لأن بشرته كانت تلمع .

كذلك نجد الشعب اليهودى يعلن أنه يميز أفراده عن بقية شعوب العالم بمسألة ختان ذكوره حيث أنهم كانوا يطلقون على أبناء الأمم الأخرى احتقارا أنهم "أبناء الغُلف" ، وبحيث أنهم كانوا يميزون قتلاهم فى الحروب بتلك العلامة. والواقع أننا نجد أن هذه العادة كانت متبعة عند العرب ، وانتقلت عن طريق الإسلام إلى فارس والهند وتركيا ، وكان المصريون القدماء يختتنون قبل اليهود كما تدل على ذلك الآثار القديمة لاسيما النقوش الموجودة فى معبد شونسو بالكرنك حيث نرى ابنيْ "رمسيس الثانى (مؤسس المعبد) يختتنان ، وهما بين السادسة والعاشرة. ويقال إن الكهنة هم وحدهم الذين كانوا يقومون بهذه العملية. كذلك عُرف الختان بين الهنود الحمر

بأمريكا حيث من العسير الاعتقاد بوجود صلة وثيقة بينهم وبين شعوب البحر الأبيض ، ولا يزال بقاياهم يمارسونها حتى اليوم ، كما يمارسها أبناء بعض القبائل الإفريقية. ويعلل المؤرخ الإغريقى هيرودتس هذه العادة عند المصريين بأن سببها النظافة ، وهى أحد الأسباب التى يذكرها المؤرخ اليهودى فيلو ، كما يذكر إلى جانب ذلك رغبة الإنسال الكثير (لا علاقة علمية بين الإنسال والختان) ، وكذلك الرمز إلى طهارة القلب كما جاء فى سفر إرميا من التوراة الإصحاح التاسع والعددان ٢٥ - ٢٦ "ها أيام تأتى يقول الرب ، وأعاقب كل مختون وأغلف ... لأن كل الأمم غلف ، وكل بنى إسرائيل غلف القلوب" ونحن نجد فى التوراة ثلاث مرات ورد فيها ذكر الختان ورودا مميزا :

الأولى : فى تكوين الإصحاح السابع عشر حين كان عمر إبراهيم ٩٩ سنة وجعل الله الختان عهدا بينه وبين إبراهيم ونسله ، ويلاحظ أن إبراهيم ختن كل ذكور بيته وبينهم إسماعيل أبو العرب ، كما يلاحظ أن الختان هنا كان علاقة أو ميثاقا بين الله ونسل إبراهيم . وفى الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين أن شكيم بن حمور الحموى اضطجع مع ابنه ليئة من يعقوب ، فغضب إخوتها واستخدموا الختان حيلة للانتقام ، ذلك بأن طلبوا من حمور

أبى شـيكم قـائلين إنـه إذا أراد ابنه التـزوج من أخـتـهم "لا نسـتطيع أن نفـعل هذا الأمـر ، أن نعطى أخـتنا لرجل أغلف لأنه عـار علينا. غـيـر أننا بهـذا نوايتكم ، إن صـرتم مـثلنا بختنكم كل ذكر نعطيكم بناتنا ونأخذ بناتكم ، ونسكن معكم ونصير شعبا واحدا ، وإن لم تسمعوا لنا أن تختتنوا نأخذ ابنتنا ونمضىّ ، فلمـا اخـتـتن كل ذكـر من بنى شكيم خـرج أولاد يعقوب فى اليوم الثالث على الذكور المتوجعين وقتلوهم وسلبوهم .

المرة الثانية فى سفر الخروج الإصحاح الرابع والعددين ٢٥ – ٢٦ "وحدث فى الطريق أن الرب التقى موسى وطلب أن يقتله فـأخذت صـفوره (زوجـته) صوانة وقطعت غرلة ابنـها. فانفك عنه" .

وثالثاً نجد أننا إذا ما وصلنا إلى سفر حزقيال الأصحاح الثانـى والثلاثين والأعـداد ٢٤ – ٣٠ أن الخـتـان قـد أصـبح العلامـة المميزة لبنى إسرائيل عن بقيـة الشعـوب ، وليس هو علامة مميزة فحسب بل هو شىء يفخرون به ويصبح الأغلف سبة للآخرين أو الأغيار. ومن هنا فإن الختـان لم يكن كما كان شـأنه فى معظم الشعوب الأخرى مجرد وسيلة صحية – بل هو طقس دينى يتميز به شعب الله المختار .

أما فكرة التضـحية فنحن نكتفى هنا بأن نذكر أنه كان

محرما على الشعب الإسرائيلى أن يقدم ضحاياه من أولاده ، وأن الضحايا المفضلة كانت من ذبائح الحيوان أو الطيور ، تدلنا على ذلك الأوامر التى ألقاها الله على موسى ، وعدة قصص أولها قصة هابيل وقايين (قابيل) حيث نظر الرب إلى قربان هابيل الذى كان من أبكار غنمه وسمانها ، ولم ينظر إلى قربان قايين الذى كان من أثمار الأرض. كذلك قصة تجربة الله لإبراهيم وفيها يبرز معنى التضحية ، حيث كان الكبش فدية عن إسحق (وفي القرآن عن إسماعيل). أما القصة الثالثة التى وضعت نهائيا الحجر الأساسى للمعنى الروحى للضحية عند بنى إسرائيل ، فذلك عند خروجهم من أرض مصر أيام موسى. فعند الضربة التاسعة – وهى الظلام – وافق فرعون على خروج الإسرائيليين من أرض مصر شرط إبقاء مواشيهم "فقال موسى أنت تعطى أيضاً فى أيدينا ذبائح ومحرقات لنصعدها للرب إلهنا. فلتذهب مواشينا أيضاً معنا. لا يبقى ظلف لأننا منها نأخذ لعبادة الرب إلهنا ، ونحن لا نعرف.بماذا نعبد الرب حتى نأتى إلى هناك (خروج ١٠ أعداد ٢٥ – ٢٦) فلما رفض فرعون كانت الضربة العاشرة وهى مرور ملاك الرب وضربه كل بكر فى أرض مصر وكان الدم ، دم الضحية التى أمر موسى الإسرائيليين بذبحها تلك الليلة " فداء لأبكارهم ويكون لكم الدم علامة على

البيوت التى أنتم فيها ، فأرى الدم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر "(خروج ١٢ عدد ١٣) ويكون لكم هذا اليوم تذكارا تعيدونه عند الرب فى أجيالكم، تعيِّدونه فريضة أبدية" (خروج ١٢ : ١٤) .

فكرة الانتظار : تلك نقاط أربع تميز الديانة اليهودية أو معتنقى الديانة اليهودية عن بقية الشعوب الأخرى المحيطة بهم. ونحن نرى أن هذه الدراسة هامة لثلاثة أسباب : أولها أن الديانة اليهودية كانت نقطة تحول بين العبادات القديمة والعبادات الحديثة فى مقدمتها المسيحية فالإسلام فيما بعد. وثانيا أنها موضوع مقابلة مستفيضة بينها وبين العقائد البابلية والمصرية والفارسية والهندية القديمة ، ولها صلة قريبة بعقائد اليونان قبل عصر الفلسفة وبعدها حتى عصر المسيح. وثالثا أنها صحبت التطور فى فكرة مجىء المسيح وانتظاره من مبدئها ، فكانت تمهيدا للدعوة المسيحية. وهنا نجد الحلقة بين اليهودية والمسيحية منذ النبوءة الرمزية التى جاءت فى سفر التكوين الإصحاح الثالث والعدد ١٥ عندما لعن الله الحية قائلا: "وأضع عداوة بينك وبين المرأة ، وبين نسلك ونسلها ، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه" فمنذ هذه النبوءة ونحن نجد أن فكرة "الانتظار" اليهودية تتطور تدريجيا حتى لقد لُقب معتنقوها بالشعب المنتظر ، ففى الآية

السابقة – فيما يرى مفسرو الكتاب المقدس – نبوءة مجىء المسيح الذى هو من نسل المرأة وسيسحق الشيطان. ولقد تعرض الشعب الإسرائيلى من العسف والهوان لدى أمم كثيرة. كما أذاقوهم هم أيضاً بدورهم الخراب والدمار حين يتاح لهم النصر كما فعلوا بأريحا فى قديم الزمان على نحو ما سنذكره وكما يفعلون الآن مع الشعب الفلسطينى – فلما سقطت الدول الكبيرة فى عهد أشعيا النبى (توفى حوالى عام ٦٨٩ ق.م) رأوا أن ذلك مؤذن باقتراب يوم إسرائيل الموعود. وكانت صورة موسى منقذ شعبهم من الأسر من أرض مصر حلماً رائعاً يستمدون منه أملهم فى المستقبل ، فحين تداعت حضارتا مصر وبابل وآذنت فارس على التداعى والانقسام تجدد رجاء بنى إسرائيل فى مُلك العالم ورأوا فى سقوط هذه الدول الكبرى انتصارا لـ "يهوا" عليها وعقوبة على ما أسلفت من إساءة إلى شعبه. وبينما نجد أنبياء التوراة الأوائل يصفون الله بأنه غيور شديد البطش ، نجد نبيهم هوشع (٧٨٠ – ٧٣٠ق.م) "إنه يريد رحمة لا ذبيحة؟ ورغم أن كلمة المسيح كانت تعنى "الممسوح بزيت الرب" مثال ذلك شاؤول الملك الذى كان يُسمى "مسيح الرب" ، فقد قال داود "حاشا من قِبَل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى بمسيح الرب" (صموئيل الأول : ٢٣ :٦) إلا أنهم أطلقوا أخيرا اسم

"المسيح" على كل من يعاقب أعداءهم ويفتح لهم باب الخلاص من أسرهم كما فعل كورش بالبابليين ، فجاء في سفر إشعيا "هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس به أمما؟ (إشعيا ٤٥ : ١) ونجد أن زكريا يقول في رؤياه "ابتهجي جدا يا ابنة صهيون.. اهتفى يا بنت أورشليم ، هو ذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور ، وديع راكب على حمار، على جحش ابن أتان" .. وهكذا تطورت الفكرة عن المخلص المنتظر حتي نجد وصفا رائعاً لها في أشعيا الإصحاح ٥٣ : ٢ - ١٠ حيث أصبحت الصفة الرئيسة له أنه "محتقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن" وهكذا أصبح للضحية التى يقدمها بنو إسرائيل معنيان : معنى رجعي تذكارى لخروجهم من أرض مصر ، ومعنى تقدمى تفاؤلى فى انتظار لمن يخلصهم ويكفّر عن خطاياهم كما تكفّر الذبيحة عن آثامهم ، ولم يعد المسيح صاحب عرش وتيجان ، بل هو مسيح منتظر فى عالم الروح ، والخلاص إنما هو خلاص النفوس والضمائر بالتوبة والتطهير .

-٢-

وهنا ننتقل إلى النقطة الثانية حيث نتحدث عن مبادئ المسيحية التى تتميز عن اليهودية ، فنجدها أساسا أنها ديانة الفرد فى مقابل اليهودية التى هى ديانة الجماعة أو القبيلة ،

ويترتب على هذا الإدراك الأول للمسيحية كل ما تفرع عنها من ميزات نجملها فى النقاط التالية :

١-المحبة .

٢-كل فرد يتحمل تبعة أعماله فى الحياة الأخرى حيث الجحيم والنعيم .

٣-أنها دين مفتوح لكل الأمم .

٤-المرأة مساوية للرجل .

ففى هذا الجو المتطلع وُلد المسيح ، وكانت بشارته تحولا خطيراً فى تاريخ الفكر البشرى ، لأنها نقلت العبادة من المظاهر والمراسم إلى أعماق النفس البشرية ، ومن عالم الحس إلى عالم الضمير" ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه" (متى ١٦ : ٢٦ - مرقس ١٨ : ٢٦ - لوقا ٢٩ : ٢٥) "وليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم ، هذا ينجس الإنسان" (مى ١٥ : ١١) "فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (متى ٤٠٤ - لو٤:٤).

فالنظام القَبَلى نجده يقوم على أساسين : كلية المسئولية ، وكلية المِلْكية. فإذا حدث أن قتل فرد من قبيلة ما فردا من قبيلة أخرى ، فإن رجال القبيلة الأخرى لا يحرصون على الانتقام من القاتل نفسه بل من أى شخص من القبيلة

المعتدية. معنى هذا أن القبيلة كلها مسئولة عن جناية أى فرد من أفرادها. كذلك الأمر فيما يتعلق بالمِلْكية. فأثناء الحروب ، حين تكون هناك غنيمة نجد أن من يغتنمها لا تصبح مِلكاً له ، بل للقبيلة أو تُقسم على جميع أفرادها .

ولكى نوضح ذلك نورد ما جاء فى سفر يشوع من التوراة الإصحاح السادس عند سقوط أريحاً فى يد الإسرائيليين حيث أمر يشوع الشعب قائلاً : إحرقوا المدينة كلها مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدسا للرب وتدخل فى خزانة الرب. لهذا نجد أنه من الخيانة فى هذا النظام أن يأخذ الإنسان شيئاً لنفسه كما فعل عخان بن كرمى بن زبدى بن زارح عندما قال "رأيت فى الغنيمة رداء شنعارياً نفيساً ومائتى شاقل فضة ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلا فاشتهيتها لنفسى وأخذتها ، وها هى مطموسة فى الأرض وسط خيمتي والفضة تحتها" (يشوع ، إصحاح ٧ : ٢١) فعُد ذلك مخالفة للأوامر وخيانة منه ، ولم تقع المسئولية عليه وحده بل استحق أن يُرجم هو وبنوه وبناته بل حتى بقره وحميره وغنمه وخيمه وكل ماله (يشوع ٧ :٢٤).

وهذا مخالف لما تطورت إليه المسئولية فى الحضارات التالية حيث أصبحت المسئولية فردية ، فكل فرد يتحمل نتيجة

تصرفه ، لهذا لا يأخذون الابن بجريرة الأب بعكس ما جاء فى الوصايا العشر على لسان الرب "أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضي" (خروج ٢٠ : ٥) كما أن نظامنا الاجتماعى يتيح لنا الملكية الفردية لوسائل الاستهلاك ووسائل الإنتاج ، فلكل إنسان أن يمتلك ما يحصل عليه – بالوسائل القانونية – وهذا ما أعلنه المسيح متلائما مع تطور النظام الاجتماعى من مجتمع القبيلة الجمعى إلى مجتمع الفرد الحضارى ، فنقل أولا الوقفة من العالم الخارجى حيث يسود قانون القبيلة إلى العالم الداخلى للإنسان حيث يسود القانون الفردي. وهناك أمثلة وآيات متعددة فى الأناجيل الأربعة على هذه النقلة. فهناك قصة المرأة الزانية التى أمسكوها لينفذوا فيها شريعة موسى وهو رجمها بالحجارة. لم ينقض المسيح هذه الشريعة بل أكملها عندما قال "لم آت لأنقض بل لأكمل" (متى ٥ : ١٧) إذ بدأ من نقطة أبعد من تلك التى بدأ منها موسى .. من الداخل ، من عالم الروح حين قال "من منكم بلا خطيئة فليرجمها أولا بحجر" (يوحنا ٨ : ٧) لم يمنع رجمها بل اشترط شرطا استحال معه تحقيق الشريعة الموسوية. كذلك قصة الأرملة الفقيرة التى ألقت أكثر من الجميع ، لأن هؤلاء من فضلتهم ألقوا فى قرابين الله ، وأما هذه فمن إعوازها

ألقت كل المعيشة التى لها" (لوقا ٢١ : ٤) وكان هذا تفكيرا جديدا على البشرية. فالنظرة السطحية للمظهر إلى الكم .. إلى الظاهر . وبمجيء المسيح تحولت النظرة إلى الكيف ، ومن العالم الخارجى للإنسان إلى عالمه الداخلى ، ويكفى أن نقرأ إنجيل لوقا ١١ : ٣٧ - ٤٢ لكى ندرك تماماً نظرة المسيح الجديدة ومدى معارضتها الجدية لأسلوب التفكير الآقل عندما تعجب الفريسى أن المسيح لم يغسل يديه قبل الغداء فتساءل قائلاً "يا أغبياء أليس الذى صنع الخارج صنع الداخل أيضاً" (عدد٤) .

أولاً : ففى المسيحية أصبحت العلاقة الرئيسة هى علاقة المحبة ، محبة بين الإنسان والله من ناحية ، ومحبة الإنسان وأخيه الإنسان من ناحية أخرى. ففيما يتعلق بعلاقة المحبة بين الله والإنسان نجد أن الله بعدما كان فى التوراة "إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء" (خروج ٢٠ :٥) نقرأ "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد" (يوحنا ٣ : ١٦) وكما قال المسيح لتلاميذه "لا أعود أسميكم عبيدا لأن العبد لا يعلم ما يفعل سيده ، لكن سميتكم أحباء لأنى أعلمتكم بكل ما سمعت من أبي" (يوحنا ٢: ١٥) وهكذا قرر المسيح قرارا تاريخيا فى عالم الروح عندما أعلن أن العلاقة بين الله والإنسان لم تعد علاقة سيد بعبده ، بل علاقة أبٍ بأبنائه .

أما علاقة المحبة بين الإنسان وأخيه الإنسان فإننا نجدها كذلك نغمة جديدة رئيسة يكررها المسيح دائماً " أحب قريبك كنفسك" (مى ١٩ : ١٩) و"أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، صلوا من أجل الذين يسيئون إليكم" (لوقا: ٦ : ٢٨ - ٢٨) "سمعتم أنه قيل لكم عين بعين وسن بسن ، أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين" (متى ٥ : ٣٨ - ٤١) وهكذا أصدر المسيح حكمه على قانون القبيلة الذى يرى أنه "سن بسن وعين بعين ويد بيد ورجل برجل" (خروج ٢١ : ٢٤) .

ثانياً : كذلك الأمر فيما يتعلق بتطور فكرتيْ "العقاب والثواب" ، فمن الأمور التى قد لا يتنبه إليها الكثيرون ، أن النعيم والجحيم كما وردا بوضوح فى أكثر من مرة بالأناجيل ، لا نجد لهما وجودا بمثل هذا الوضوح فى الديانة اليهودية لأننا كما قلنا بإزاء نظام قبلى كل فرد يتحمل فيه أخطاء الآخرين ، ولسنا بإزاء نظام يتحمل فيه كل فرد أخطاءه بنفسه. فالله ينتقم من الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضيه (خروج ٢٠ : ٥) كذلك جاء فى الوصية "أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك

الرب إلهك" (خروج ٢٠ :١٢) وعقاب الزاني والزانية والخائن ومن إليـهم هو الرجم. فنحن إذن بإزاء عقـوبات ومكافـآت جميعها دنيوية ، كالبركة التى منحها الله لابرهيم فهى بركة قَبَلية وهى تكثير النسل حتى يصبح كنجوم السماء ورمل البحر. وربما أول ذِكْر لعالم آخر بعد الموت جاء فى صموئيل الأول عندما أراد شاول الملك الذهاب إلى الحرب - وكانت أخر مرة بالنسبة له - وكان النبى صموئيل قد مات . فذهب إلى امرأة صاحبة جان كما تصفها التوراة ، وكان شاول قد قطع أصحاب الجان من الأرض مما يبرهن على عدم اعتراف العقيدة اليهودية بهم. فأصعدت له صموئيل الذى استنكر ما فعله به شاول متسائلا "لماذا أقلقتنى بإصعادك إياي" (صموئيل الأول ٢٨ : ١٥) وفى مزامير داوود نجد إشارات متباعدة لفكرة غامضة عن الحياة بعد الموت. لكن المهم هو أن هذه الفكرة لم يكن لها كبير خطر فيما يُرتكب فى هذه الحياة على نحو ما كان لدى المصريين القدماء حيث نجد أوزوريس وبيده ميزان يزن به أفعال الناس عند موتهم ليحاسبهم عليها. لكننا نعثر فى سفر أشعيا - وذلك فى القرن الثالث قبل الميلاد - على نبوءة عن يوم "يطالب فيه الرب جند العلاء فى السماء ، وملوك الأرض على الأرض ، ويُجمَعون جميعاً كأسارى فى سجن .. ويخجل القمر وتخزى الشمس .. لأن

رب الجنود قد ملك فى جبل صهيون وفى أورشليم "(أشعيا ٢٤ : ٢٣) وفى سفر دانيال - وهو سفر قديم تم تدوينه متأخرا جدا - أن كثيرين من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للإزدراء الأبدي" ، (دانيا ١٢ : ٢) ذلك أن الثواب والعقاب قبل ذلك كان نصرا يكافأ به الإسرائيليون على أعدائهم ، أو بلاء يصابون به على أيدى جيرانهم جزاء لهم على خيانة "يهوذا" وعبادة غيره من آلهة الشعوب .

لكننا نجد بعد السبى البابلى (٧٢١ ق.م أول سبى على يد سرجون حيث نقل الأسرى إلى ما وراء نهر الفرات - حتى آخر عودة من السبى تحت قيادة نحميا عام ٤٤٥ ق .م وذلك فى عهد كورش) نجد بعد السبى البابلى كلمات كثيرة عن الأرض السفلى أو الجب أو شتول وهى الهاوية التى يأوى إليها سكان العذاب الأبدى (متى ١٨ : ٨ ومرقس ٩ : ٤٣) بعد أن كانت فى التوراة تذهب إليها جميع أرواح الموتى بدون استثناء (تكوين ٣٧ : ٣٥ ومزمور ٣١ : ٢٧ وأشعيا ٣٨ : ١٠) وفيها يجرى العقاب ويُمنح الثواب (صموئيل الأول ٢٨ : ٨ - ١٩) .

وفى عصر المسيح نجد فريقين يقوم اختلافهما حول هذه المسألة ، فالفريسيون يؤمنون بوجود حياة بعد الموت ، بينما

الصدوقيون ينكرون ذلك مما يدل على أن موضوع النعيم والجحيم ليس من صميم الديانة اليهودية ، وأنها عندهم عقيدة شخصية أو مذهبية يمكن أن يختلف حولها يهوديان ، أما فى المسيحية فنحن نجد أنه مع تمشى فكرة تحمل الفرد عبء تصرفاته ، أن الثواب والعقاب للفرد يستمران بعد موته فى صورة الفردوس وجهنم. ومن الملاحظ تاريخيا أن هذه الفكرة ظهرت عند الجماعات المستقرة أو دخلت فى التطور الفكرى عندما أخذت الجماعات غير المستقرة تستقر أو تختلط بشعوب مستقرة على نحو ما حدث لليهود فى القرون الأخيرة قبل الميلاد. وقد تكرر ذكر الحياة بعد الموت فى أقوال كثيرة للمسيح . ففى الموعظة على الجبل قال "لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله فى جهنم" (متى ٥ : ٢٩) كما قال" خافوا من الذى بعدما يقتل له سلطان أن يلقى فى جهنم" (لوقا ١٢ :٥) كما نقرأ فى قصة لعازر والغنى أن لعازر مات وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم ، وأن الغنى رفع عينيه فى الهاوية وهو فى العذاب (لوقا ١٦ : ٢٣) وكثيراً ما تكرر فى أقوال المسيح إشاراته إلى حيث "هناك يكون البكا وصرير الأسنان" (متى ٨ : ١٢ ولوقا ١٣ - ٢٨) وجاء فى إنجيل متى الإصحاح الثامن والعدد ١١ أن المسيح قال عن قائد المائة الذى كان غلامه مطروحاً فى البيت مفلوجاً

"الحق أقول لكم ، لم أر ولا فى إسرائيل إيمانا بمقدار هذا ، أقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب يمكثون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السماوات ، وأما بنو الملكوت فيطُرحون إلى الظلمة الخارجية ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان" (متى ٨ : ١١ - ١٢) وهكذا بوجود النعيم والجحيم حقيقتين مسيحيتين أصبح كل فرد يتحمل وحده تبعة أفعاله .

ثالثاً : وقصة قائد المائة تؤدى بنا إلى الميزة الثالثة التى تميزت بها المسيحية عن اليهودية. ذلك أن المسيحية دين تبشيرى أى دين مفتوح ، حيث - كما قرأنا فى الآية السابقة - سيأتى من المشارق والمغارب من يمكث فى حضن إبراهيم وإسحق. ومرة أخرى نجد أن اليهودية باعتبارها ديانة قَبَلية تعلن أنها لا تبشر غيرها بدينها أو تضمه إليها ، لأن الدين والجنس متعلقان ببعضهما ، بل إنهم يعتقدون أن هذا الدين قد أعلنه الله لهم لأنهم شعبه المختار ، ومن ثم فللجنس علاقة وثيقة بالدين. وقد ينضم إليهم أفراد من "الأمم" لكن ليس عن طريق الدعوة والتبشير بل عن طريق المجاورة أو المصاهرة أو الظروف الخاصة ، على نحو ما دخلت راحاب الزانية بعد سقوط أريحا ، وثامار التى تزوجها يهوذا بن يعقوب بعد أن تنكرت فى شكل بغى ، وراعوث التى تزوجها بوعز النعمانى

ولها سفر باسمها فى التوراة. فالدين اليهودى دين ليس منفتحا لكل الشعوب .

لكن التاريخ يبرهن على عدم الالتزام بهذا المبدأ حيث نجد يهودا من الأحباش على سبيل المثال. والواقع أن معظم الديانات السابقة على المسيحية ظلت ديانات مغلقة حتى ما وصل منها إلى درجة تجريدية عالية مثل الديانات المصرية القديمة والهندية والبابلية والفارسية - وبذلك سجلت المسيحية أنها أول ديانة إنسانية تبشيرية ، حيث تخاطب الأفراد مباشرة بغض النظر عن جنسياتهم وقبائلهم. فالمسيح يخاطب المرأة السامرية قائلاً "يا امرأة صدقينى أنه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للأب .. تأتى ساعة هى الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للأب بالروح والحق "(لوقا ٤ : ٢١ - ٢٣) وهكذا أعلن المسيح تحولا خطيرا آخر فى تاريخ العقيدة البشرية. ونجد أمثاله وكلماته مليئة بفكرة قبول "الأمم" فى الديانة الجديدة ، كأمثاله عن الابن الضال الذى عاد إلى أبيه فاحتفى به وذبح له العجل المسمن لأنه كان ميتا فعاش وضالا فوُجد (لوقا ١٥ : ٢٣ - ٢٤) ومَثَل الإنسان الذى أقام وليمة ولم يحضر إليها المدعوون فدعا المساكين والجُدْع والعرج والعمى (لوقا ١٤ : ٢١) .

فإذا وصلنا إلى أعمال الرسل وجدنا كيف ظن الرسل -

اليهود - أن الدين الجديد لخلاصهم فقط دون الأمم ، وكيف أن بطرس عندما صعد إلى السطح ليصلى نحو السادسة "جاع واشتهى أن يأكل ، وبينما هم يهيئون له وقعت عليه غيبة ، فرأى السماء مفتوحة وإناء نازلا عليه مثل ملاءة عظيمة مربوطة بأربعة أطراف ومدلاة على الأرض ، وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء. وصار إليه صوت : قم يا بطرس إذبح وكل ، فقال بطرس : كلا يارب لأنى لم آكل قط شيئاً دنسا أو نجسا ، فصار إليه صوت : ما طهره الله لا تدنسة أنت "(أعمال الرسل ١٠ : ١٥) ويوضح لنا هذا من ناحية كيف أن بطرس كيهودى ، شخص لا يزال يفكر بعقلية القبيلة ، يرى أن يقصر المسيحية على قبيلته ، بحيث أنه قال فيما بعد حين جاءه الرجال الثلاثة من قبل كرينليوس" وأما أنا فقد أرانى الله ألا أقول عن إنسان ما إنه دنس أو نجس. فلذلك جئت دون مناقصة إذ استدعيتموني" (أعمال الرسل ١٠ : ٨) ومن ناحية أخرى نجد الفرق الحقيقى بين بطرس هذا اليهودى ، وبطرس الرسول المسيحى بعد رؤياه أنه ذهب يبشر من كان اليهود يسمونهم بالأمميين. وهكذا أدرك الرسل أن المسيحية ليست خلاصا لليهود فحسب بل للعالم كله. وقد ناقش بولس الرسول فى رسالاته هذه القضية كثيراً ، فمما جاء فى الرسالة إلى أهل

غلاطية قوله "لأنه في المسيح ليس الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل الخليقة الجديدة "(إصحاح ٣ : ٢٩) وفى موضع آخر "فإن كنتم للمسيح فأنتم إذن نسل إبراهيم حسب الموعد وورثته "(غلاطية ٢٩: ٣). وهكذا نجد محاولة لإيجاد التلاؤم بين الفكرة اليهودية القديمة أن الورثة هم نسل إبراهيم والوضع الجديد لمن قبلوا المسيح مخلصا من الشعوب الأخرى .

رابعاً : كذلك تتميز المسيحية عن اليهودية بميزة رابعة ، وذلك فيما يتعلق بوضع المرأة فنحن نجد أن اليهودية كانت كبقية الشعوب حولها تبيح الطلاق وتبيح الزواج بأكثر من واحدة دون حدود وسليمان الحكيم مثال على ذلك فقد كانت له سبعمائة من النساء وثلاثمائة من السرارى ، (ملوك الأول ١٢ : ٣) أما المسيح فقد قال فى عظته على الجبل "وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى . ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني"(متى ٥ : ٣١ - ٣٢) وكتب بولس الرسول فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (أصحاح ٧ : ١)" ليكن لكل واحد امرأته ، وليكن لكل واحدة رجلها - ليعرف الرجل للمرأة حقها الواجب ، وكذلك المرأة أيضاً الرجل". وفى عدد ٢٧ من الإصحاح نفسه قال "أنت مرتبط بامرأة فلا تطلب

الانفصال ، وأنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة". وهكذا قررت المسيحية أمرين فيما يتعلق بالمرأة رفعت بهما من شأنها مما لم ترفعه إليها ديانات سابقة ، وذلك عدم جواز الطلاق إلا لعلة الزنى ، فإذا وقع الموت فليس هناك ما يمنع من الزواج ، يقول بولس الرسول "المرأة مرتبطة بالناموس مادام رجلها حيا ، لكن إن مات رجلها فهي حرة لكي تتزوج بمن تريد في الرب فقط" (كورنثوس الأولى ٧ :٣٩) وثانيا قررت المسيحية عدم الزواج بأكثر من واحدة حيث أعلن المسيح أنه" يكون الاثنان جسدا واحداً" (متى ١٩ : ٥) .

وهكذا أعطت المسيحية ما سلبته أجيال طويلة سابقة من المرأة حيث لم يكن يقام أي وزن لعواطفها ، فيطلقها الرجل لأتفه الأسباب ، ويتزوج إلي جانبها دون مراعاة لمشاعرها ، بل لعل هذه المبادئ استعمرتها فأمنت بدورها أنها حق من حقوق الرجل حتى لتدعو هي بنفسها إلي ممارستها على نحوا ما نقرأ أن سارة زوجة إبراهيم هي التي تطلب منه أن يتزوج جاريتها هاجر لتنجب له وريثاً حيث نقرأ دعوتها "ادخل على جاريتى لعلى أرزق منها بنين ، فأخذت ساراي امرأة إبرام هاجر المصرية جاريتها .. وأعطتها لإبرام رجلها زوجة له" (تكوين ١٦ : ٢ - ٤) .

لكننا لا نجد نصا واحداً في الأناجيل الأربعة يخفض من

شـأن المرأة ، فـضـلاً عن تلك النصـوص التى تضـعـهـا فى مـركـزهـا الجـديد على قدم المسـاواة مع الرجل أمـام المجـتمع وأمام الله ، احترام المسيح الشـديد للمرأة إبان كل حياته بدءا من عـلاقـتـه بأمـه مـريم ، فـمريم أخت مـرثا التى جلست عند قـدميْ يسـوع وكـانت تـسـمـع كـلامـه .." فـاخـتـارت النصـيب الصـالح الذى لم يُنزع منهـا "(لوقـا ١٠ : ٣٩ - ٤٢) حـتى المرأة التى أمـسكوها فى زنا حين أجـاب على من طالبـوا برجمـها طبقاً لشريعة مـوسى قائلاً " من كان منكم بلا خطيئة فليرمـها أولا بحجر "(يوحنا ٨ : ٧) والواقع أن من يظنون أن المسـيـحـيـة تخـفض من شـأن المرأة ، إمـا أنهم يرجـعـون إلى نصـوص توراتيـة وهذه أعلن المسـيـح تجاوزهـا فى عظتـه على الجبل ، أو يرجعون إلى نصـوص من بولس الرسول الذى ذكر أكثر من مرة فى رسـالاته أنه فى هذا الموضـوع بالذات إننمـا يعّبر عن رأيه الخاص وليس بالروح ، كمـا أنه أحيانا ما كـان يستمد تشبيهاته واستعاراته من ديانته اليهودية السابقة. وذلك حين أعلن أن الرجل رأس المرأة كـمـا أن المسـيح رأس الكنيسة. كمـا استخدم الأمر حين قال "لتصمت نسـاؤكم فى الكنـائس لأنه ليس مـأذونـا لهن أن يتكلمن بل يـخـضـعـن كـمـا يقول الناموس" (كورنثوس الأولى ١٤ : ٣٤) .

إلا أننا نعثر فى آيات أخرى على تجاوزه لوضع المرأة فى

اليـهودية حين يعلن بصيغـة الأمر "ليكن لكل واحد امـرأته ، وليكن لكل واحدة رجلها ، ليوفِ الرجل المرأة حقـها الواجب وكذلك المرأة أيضاً الرجل ، ليس للمرأة تسلط على جسـدها بل للرجل ، وكذلك الرجل أيضاً ليس له تسلط على جسده بل للمـرأة "(كورنثـوس الأولى ٧ : ٢ – ٤) وفى رسـالتـه إلى أهل أفسس يعلن بصيغة الأمر قائلا "كذلك يجب على الرجال أن يحبـوا نسـاءهم كـأجسـادهم. من يحب امـرأته يحب نفسـه" (إصحاح ٥ : ٢٨) أما المسيحية كما تركها لنا المسيح ، أما الأناجيل الأربعة كما تركها لنا من كتبوها فليس فيه إشارة واحدة إلى الوضع اليهودى الثانوى للمرأة بالنسبة للرجل .

-٣-

أخيراً نتناول النقطة الثالثة وهى تطور الأفكار اليـهودية خلال المسيحية :

هنا نجد أننا أمام نقاط كثيرة لكن أهمها أربع :

الإله الواحد أصبح فى ثلاثة أقانيم (صفات أو وظائف) .

الإله غير المنظور تجسد .

التـضـحـيـة أو الضـحـايا (حـيـوان أو طـيـر) بطلت بصلب المسيح وظلت ممارسـتـها رمزية عن طريق ما يُعرف بالتناول أو العشاء الربانى .

الانتظار اليـهودى للمسـيـحـيـة أو المسيح أصبح انتظارا

للروح القدس من ناحية ، وانتظارا لمجىء المسيح الثانى من ناحية أخرى .

فأولا نجد أن فكرة الإله الواحد ظلت فى المسيحية لكن بدت فى ثلاث صفات أو وظائف أو لاهوتيا "أقانيم" وهى (الله الآب أو الله الخالق ، والله الابن أو الله المخلص ، والله المعزى أو الروح القدس) فالله جوهر ، وهذه أقانيم له -perso naوهذه التفرقة فى الواقع ترجع إلى الفليسوف الإغريقى أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) الذى يفرق بين الجوهر والعرض، وقد قامت فيما بعد خلافات شديدة حول تحديد هذه الأقانيم تحديدا قاطعا ، ونحن نجد فكرة التثليث هذه فى ديانات أخرى كالفرعونية ممثلة فى إيزيس وأوزوريس وحورس ، وفى الديانة الهندوسية حيث نجد الإله الخالق براهما ، والإله المهلك سيفا ، والإله الحافظ فشنو. لكنهم ثلاثة آلهة منفصلون فى الديانتين الفرعونية والهندوسية ، لكنهم ثلاثة أقانيم فى الإله الواحد فى المسيحية .

وثانيا نجد أن الإله غير المنظور فى اليهودية قد تجسد فى شخص المسيح ليخلص ما قد هلك ، ثم صُلب ومات وقُبر ، وفى اليوم الثالث قام من الأموات ، وهو جالس عن يمين الأب ليدين الأحياء والأموات والذى ليس لملكه نهاية طبقاً لما جاء فى "قانون الإيمان". وفى تاريخ المسيحية فيما بعد هناك من

رأى أن المسيح مجرد إنسان امتاز بمواهب خاصة وقوى معجزية وكرامات قدسية مثل آريوس أحد كهنة الإسكندرية فى القرن الرابع الميلادى (حرمه مجمع نيقيه عام ٣٢٥م) وقد اجتمع مجمع نيقية من أجل ذلك وقرر قانون الإيمان سالف الذكر. ومع أن دعوته لاقت بعض القبول إلا أنها سرعان ما اختفت ، وظل الإيمان المسيحى قائماً على فكرة تجسد الله فى شخص المسيح .

وثالثاً : أن الختان لم يعد مميزا للمؤمنين ، وأن الختان هو ختان الروح ، يقول بولس الرسول "إن دُعى أحد وهو مختون فلا يصير أغلف ، وإن دُعى أحد فى الغرلة فلا يُختتن " (كورنثوس الأولى ٧ : ١٨) . وبهذا سقطت الحواجز بين اليهود ومن كانوا يسمونهم "الأمم" ، وأصبح الكل أعضاء في جسد المسيح ، يقول بولس الرسول فى رسالته إلى أهل روميه الإصحاح الرابع مبررا الوضع الجديد ومحاولا إقناع اليهود الذين دخلوا المسيحية وتذمروا من دخول "الأمم" معهم فى الدين الجديد طبقاً لما عهدوه فى اليهودية "إن الإيمان نُسب لإبراهيم وهو لما يزال فى الغرلة (أى غير مختتن) ، وأنه أخذ علامة الختان ختما لبر الإيمان فهو أبا لختان الذين ليسوا من الختان فقط بل أيضا يسلكون فى خطوات إيمان أبينا إبراهيم، الذى كان وهو فى الغرلة" (روميه ١٢ : ٤) .

ونجد رابعا أن معنى التضحية قد تطور فى المسيحية تطورين : أحدهما عن طريق صلب المسيح ، والآخر عن طريق ما يُسمى بالشركة المقدسة أو التناول .

ففيما يتعلق بالتطور الأول نكتفى بالرجوع إلى كاتب الرسالة إلى العبرانيين فى الإصحاح التاسع حيث يعلن أن صلب المسيح فى العقيدة المسيحية - قد أبطل كل حاجة إلى ذبيحة .

ومن ناحية أخرى لا تزال ذكرى فدائه يمارسها المسيحيون فيما يُعرف بالشركة المقدسة أو "التناول" حين اجتمع مع تلاميذه فيما يُعرف بالعشاء الأخير "وأخذ خبزا وشكر وكسّر وأعطاهم قائلا : هذا هو جسدى الذى يُبذل عنكم اصنعوا هذا لذكرى، وكذلك الكأس أيضا .. قائلا هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يُسفك عنكم (لوقا ٢٢ : ١٩ - ٢٠) وهكذا بطل تقديم الضحية فى المسيحية من ناحية، وظلت ممارستها كذكرى من ناحية أخرى .

وأخيرا فيما يتعلق بمعنى الانتظار فى المسيحية ، فقد تميز الشعب اليهودى بلقب أو صفة "الشعب المنتظر" ، وكان المتوقع أنه فى المسيحية بمجىء المسيح انتهى انتظاره. لكن الواقع أن المسيح قد ترك لتلاميذه انتظارين : الأول مجىء المعزى أو الروح القدس (أحد الأقانيم الثلاثة) " لكنى أقول

لكم ، الحق أنه خـيـر لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعـزى ولكن إذ ذهبت أرسله لكم" (يوحنا ١٦ : ٧) والانتظار الثانى هو مجيئه الثاني. فنحن نقرأ الأمثال الكثيرة التى ضـربهـا المسـيح لمعنى الانتظار وكيف يجب أن يكون المؤمنون دائماً على أهبة الاستعداد ، كمثل العذارى الخمس الحكيمات والعـذارى الخـمس الجاهلات اللاتى لم يستطعن دخول العرس لأن الباب أُغلق أمامهن حيث لم يكن مستعدات بزيت فى مصابيحهن (متى إصحاح ٢٥ : ٢ - ١٣) وفى موقف آخر قال "انظروا إلى شجرة التين وكل الأشجار متى أفرخت تنظرون وتعلمون من أنفسكم أن الصيف قد قرب. هكذا أنتم أيضاً متى رأيتم هذه الأشياء صائرة حتى يكون الكل فاعلموا أن ملكوت الله قريب - فاحترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم فى خمار وسكر وهموم الحياة فيصادفكم ذلك اليوم بغتة لأنه كالفخ يأتى على جميع الجالسين على وجه الأرض. اسهروا إذا وتضرعوا فى كل حين لكى تُحسبوا أهلا للنجاة من جميع هذا المزمع أن يكون وتقفوا أمام ابن الإنسان"(لوقا ٢١ : ٣٠ - ٣٩). وفى إنجيل لوقا ١٧ : ٢٠ - ٣٧ نجد وصفا رائعا لهذا المجيء الثانى .

العقيدة المسيحية
بين الكاثوليكية والبروتستانتية

سبقت ما يُعرف بحركة الإصلاح الدينى فى العالم الغربى (أوروبا) بعض التمهيدات العامة والخاصة ، فمن الناحية العامة نجد أن معظم المؤرخين يرون أن بدء ما يُسمى بالعصور الحديثة هو عام ١٤٥٣م عام سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك ، مما ترتب عليه هجرة مئات الصناع المهرة والمفكرين وانتشارهم فى أوروبا محدثين ثورة فكرية شاملة ، بينما يرى البعض الآخر أن البداية كانت عام ١٤٩٢م عند اكتشاف أمريكا أو بسقوط غرناطة آخر معقل للعرب فى الأندلس. والواقع أن هذه التواريخ مسألة اعتبارية بحتة ، فلا يمكن أن نقول إن أوروبا انقلبت من عقلية القرون الوسطى إلى عقلية العصور الحديثة فى سنة محددة بل إن هذا التطور بدأ فى الواقع من القرن الثالث عشر الميلادى حتى الخامس عشر أوائل السادس عشر .

ففى أواخر القرون الوسطى نجد أن القوميات بدأت تظهر، ففرنسا توحدت بفضل ملوك الأسرة الكابية (٩٤٠ – ٩٩٦م) وأول ملوكها Hugh (987 - 996م) الذين قضوا على كبار الأمراء الإقطاعيين ، وكانت سلطة الملك مطلقة وله

مجلس نيابى يجمعه لفرض الضرائب يُسمى مجلس الطبقات. وكانت إنجلترا قد توحدت وتأسس فيها برلمان. وإسبانيا توحدت بضم مملكة أراجون وقشتاله بعد زواج ملكها فرديناند الخامس وإيزابيل وذلك عام ١٤٦٩م وسقوط غرناطة بعد هزيمة الحكم العربي. وكانت إيطاليا مجموعة دويلات أهمها دويلة البابا ونابولى وصقلية وجمهوريات فلورنسا والبندقية وجنوة. كما كانت هناك الإمبراطورية الجرمانية المقدسة التى تحكم بالاسم ألمانيا وشمالى إيطاليا والتى كانت فى حالة فوضى رغم جهود أسرة جيسبورج. أما أوروبا الوسطى فإن الشعوب التى هاجمتها فى أوائل القرون الوسطى استوطنت فيها وشكلت دولا عديدة كالمجر والبلغار .

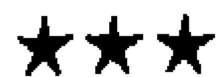
من ناحية أخرى ظهرت اختراعات عدة أهمها اختراع الطباعة بالحروف المتحركة على يد الألمانى يوحنا جوتنبرج (١٣٩٧ - ١٤٩٨م) وذلك فى مدينة ستراسبورج بألمانيا عام ١٤٣٦م ، كذلك اختراع صناعة الورق التى انتشرت فى أوروبا فى القرن الخامس عشر أيضاً ، وأدت نتيجة الاختراعين إلى تأثير كبير فى خفض أسعار المخطوطات التى أصبحت مطبوعات ، مما ترتب عليه تزايد نسبة المتعلمين والقراء ، كما كان له أثره عند ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات الوطنية بطباعتها وانتشار قراءته .

كذلك اخُترع البارود الذى كان له أثره عند استخدامه فى دك حصون الإقطاعيين فى أوروبا وتدعيم السلطة الملكية .

كذلك كان من بين الاكتشافات الهامة اكتشاف البوصلة لدى العالم الأوروبي، وإن كانت معروفة من قبل لدى البحارة الصينيين والعرب مثل أحمد بن ماجد (فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي) الذى طورها ، وكانت لهذه التطورات الحضارية أثرها في الاكتشافات الجغرافية (١٤٥٢ - ١٥١٦م) .

وهنا نضيف عاملا ثالثا إلى جانب نشأة القوميات ، وتطور الاختراعات ، وهو الاكتشافات الجغرافية سواء لأسباب حربية أو تجارية. فاكتُشفت شواطئ إفريقيا فيما وراء خط الاستواء حتى جنوب إفريقيا والطريق إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨م) بقيادة فاسكو دى جاما (١٤٦٩ - ١٥٢٤م) ، واكتشاف كولومبوس (١٤١٥ - ١٥٠٦م) ما ندعوه الآن بالقارة الأمريكية. وقد كان لهذه الاكتشافات نتائج اقتصادية واجتماعية وفكرية بعيدة الأثر. فقد ازدادت المعلومات البشرية واتسعت وتعددت مصادر الثروة ، وظهرت الطبقة الوسطى ذات الوفرة الاقتصادية بعد رواج التجارة والثروة وتعدد مصادرها. فلم يعد أسلوب الحياة الإقطاعية يلائم الوضع العالمى الجديد ، إذ أصبحت

هناك مصادر غنية بالمواد الخام وأسواق شهية للاستهلاك تحتاج إلى وسائل للإنتاج أكثر تكيفا مع ما جد من تطور حضاري. لهذا نرى أنه بعد أن كانت وسيلة الإنتاج الرئيسة فى العصور الوسطى هى الزراعة وأن للصناعة مكانا ثانويا ، أخذت الصناعة تزحف شيئا فشيئاً لتحتل المكان الرئيس فى تلبية حاجات الوضع الجديد .



هذا هو الوضع العام الذى كان محيطا بالكنيسة فى أوروبا فى نهاية ما يُعرف بالعصور الوسطى ، وبزوغ ما يُعرف بعصر النهضة ، ولقد تأثر الوضع الداخلى للكنيسة تأثراً شديداً بهذه التطورات الجديدة فلم يعد من السهل أن تبقى السياسة خاضعة للضغوط البابوية ولا أن يظل الملوك - بعد نهوض الحكومات القومية فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا - يرضخون لأوامر البابوات راضين بأحكامهم الجائرة واستبدادهم كما كان وضع أسلافهم. فلم يكد يبدأ القرن الرابع عشر حتى حارب إدوارد الأول ملك إنجلترا (١٢٧٢ - ١٣٠٧م) وفيليب الجميل ملك فرنسا (١٢٨٥ - ١٣١٤م) البابا "بونيفاتيوس الثامن" (١٢٩٤ - ١٣٠٣م) حتى هزماه بل وأسراه عام ١٣٠٣م. وكانت هذه الهزيمة جرحا فى جبين البابوية لا يندمل إذ أخذ فيليب بعد ذلك يعمل على قلب

السلطان البابوى ، حتى أنه عندما مات هذا البابا وخلفه بندكت الحادي عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤م) عمد فيليب إلى عقد اجتماع سري ديني من الكرادلة تم فيه انتخاب رئيس أساقفة "بردو" خلفا لهذا البابا ، ولُقب بلقب "كلمنت الخامس" (١٣٠٥ - ١٣٣٤م) فلما جلس هذا البابا على كرسى البابوية عام ١٣٠٥م نقل كرسيه عام ١٣٠٩م إلى مدينة أفجنون على نهر الرون ، وأظهر خضوعه التام للملك فيليب ، فكان عهده عهد تغيير فى النفوذ البابوي والكرسى البابوي، وظلت البابوية فى هذا "السبى" مدة ٦٨ عاماً ، ثم اكتسح الوباء المعروف بالموت الأسود (الطاعون) أوروبا بأسرها بين عامى " ١٣١٧ - ١٣٧٠م ، بعدها تم انتخاب بابوين إيطاليين أحدهما لكرسى روما هو أوريانس السادس (١٣٧٨ - ١٣٨٩م) والآخر لكرسى أفجنون هو كلمنت السابع (١٣٧٨ - ١٣٩٤م) وظل هذان الكرسيان يتنافسان على مدي ثلاثين عاما ، وقد انحازت إنجلترا وإيطاليا وألمانيا إلى كرسى روما ، بينما ظلت فرنسا وأسبانيا مع كرسى "أفجنون" إلى أن جلس على كرسى بابوية روما "غريغور الثانى عشر" (١٠٤٦ - ١٤١٥) وعلى كرسى "أفجنون "بندكت الثالث عشر" (١٣٩٤ - ١٤٢٣م) فاتحدت أمنية الاثنين على جمع الشمل وتوحيد الكرسيين. إلا أن الكرادلة لم يسلكوا سبيل الحكمة فى تنفيذ

هذه الأمنية لأنهم عقدوا مجمع "بيزا" عام ١٤٠٢م وقرروا فيه عزل الاثنين وتعيين رئيس أساقفة ميلان خلفا لهما فى روما تحت لقب "إسكندر الخامس" (١٤٠٩ - ١٤١٠م)، لكن هذين البابوين لم يذعنا للحكم لاسيما وأن ذلك البابا كان شيخا ضعيفا لا يقوى على المنافسة ولا تحمل أعباء المهمة التى ألقيت عليه ، فاستبدلوا آخر به شديد البطش هو يوحنا الثالث والعشرون (١٤١٠ - ١٤١٥م) ، فأصبح فى ذلك الوقت ثلاثة بابوات يتنازعون السلطة ويتنافسون على الرئاسة ، ويقذف كل منهم الآخر بالحرمان ويرميه بالطعنات واستمر وضع الكنيسة الغربية على هذا النحو النصف الأخير من القرن الرابع عشر على رأسها ثلاثة بابوات ينشئون الأحزاب والجمعيات والمنازعات والخصومات حتى تدخل أخيرا الإمبراطور "سجمند" تدخلا فعليا فشد أزر صديقه "يوحنا الثالث والعشرين" على الاستئثار بالسلطة البابوية وتنفيذ حكم مجمع بيزا وعزل البابوين الآخرين بالقوة وتجريدهما من جميع الحقوق الكهنوتية ، وإعادة الحال إلى ما كانت عليه قبلا من وجود بابا أعظم واحد فى روما للكنيسة الغربية .

فى ذلك الوقت ، وقد بلغ نفوذ الباباوات ضعفاً هذا مبلغه، أخذت بعض الجمعيات تنهض مجاهرة بالنظر إلى أوامر الله قبل كل شيء وعدم الالتجاء إلى الكهنة فى سبيل الخلاص ،

بينما أخذ البعض الآخر يحض على درس الكتاب المقدس وهو ما كان يحرمه البابوات السابقون ، وكان مما ساعد على ذلك انتشار الطباعة والكتابة ، وجعل اللغات القومية لغات الكتابة بعد أن كانت اللاتينية سابقا. فنجد الإسبانى سرفانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦م) يؤلف لأول مرة كتابه المشهور "دون كيشوت" وكان قد سبقه فى إيطاليا دانتى (١٢٦٥ - ١٣٢١م) فأنشأ باللغة الإيطالية لأول مرة "الكوميديا الإلهية" باللغة الإيطالية. كما انتشر فى فرنسا شعراء يتغنون لأول مرة بالفرنسية أهمهم الشاعر رونسارد Ronsard (1525 - 1585). بينما فى إنجلترا نجد جون ويكليف (١٣٢٨ - ١٣٨٤) يترجم الكتاب المقدس من اللاتينية إلى الإنجليزية ومارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٩م) يترجمه إلى الألمانية ، ولم يكن هناك نثر ألمانى مكتوب قبل ذلك ، لهذا فقد بذل مشقة بالغة فى ترجمته ، وكثيراً ما كان يستعصى عليه التعبير فيخرج إلى الحقول ليتحدث مع صبى أو فلاح حتى يعثر فى أثناء الحديث على التعبير الألمانى الصحيح ليعود فرحا ليدونه، وقد أثرت هذه الترجمة بدورها فى الأدب الألمانى نثراً وشعرا ، ذلك لأن الكتاب المقدس كان أول ما دُون باللغة الألمانية التى لم تكن قبل ذلك إلا لغة العامة والحديث حتى ذلك الوقت .

وهنا بدأت الكنيسة الغربية تقاوم هذه الحركات والجمعيات ، فانعقد مجمع كونستانس (١٤١٤ - ١٤١٨م) وحكموا على "يوحنا هيس" أحد المصلحين بالسجن ثم بالحرق بالنار ، وكان جون ويكليف (١٣٢٨ - ١٣٨٤م) قد مات فأحرقوا كنيسته. غير أنه وبعد تنفيذ هذه الأحكام بفترة وجيزة ظهرت جمعيات من أتباع ويكليف وهيس فى جرمانيا وبلاد الفلمنك بعضها من الذكور وبعضها الآخر من السيدات - وهى المعروفة الآن "بجمعيات الإخوة والأخوات" ، وبلغت من القوة مبلغا زعزع أركان الإمبراطورية الجرمانية ، وأخضع الرأى العام لما عُرف بالحركة الإصلاحية. فكان لابد من عقد مجمع آخر للنظر فى أتباع ويكليف وهيس هو مجمع باسل فى عهد البابا يوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧م) إلا أن المجمع ما لبث أن أخذ ينظر فى تحديد السلطة البابوية مما أثار غضب البابا وأمر بإلغاء هذا المجمع ، فنشأ عن صدور هذا الأمر انشقاق عُقدت على أثره اجتماعات مختلفة كانت تنعقد بأمر الملوك والأمراء وتكيد كيدا شديدا للبابوات وذلك لمدة عشر سنوات. وقد قامت بعد ذلك محاولات فاشلة لتوحيد الكنيستين الغربية والشرقية حتى يعود للكنيسة نفوذها الذى بدأت تفقده .

أما رجال الدعوة الإصلاحية فقد أخذوا يوجهون النقد

لرجال الدين ، وكان أهمهم إبراسموس (١٤٦٩ - ١٥٣٦م) الذى لم تقتصر شهرته على وطنه الأصلى هولندا بل طبقت كل أنحاء أوروبا. وقد ساعد هؤلاء المصلحين أنه كان ثمة بواعث اقتصادية وسياسية ، فكثير من الانقلابات السياسية والحركات القومية رافقت ما أُطلق عليه "الدعوة الإصلاحية" ، فقد كانت الثورة الدينية وسيلة فى الوقت نفسه للتحرر من السلطة الحاكمة ولبناء الكيان القومى .

ذلك أنه كان للكنيسة أملاك عظيمة في ألمانيا أكبر اتساعا من جميع الأملاك الأخرى ، وكان ريعها يذهب إلى روما مقر البابوية ، كما أن الضرائب كان يجبيها جماعة من المواطنين الإيطاليين فى مختلف بلاد أوربا وتُرسل إلى روما. ومن جهة أخرى فإن بعض المناطق كان يحكمها جماعة من الأمراء ذوى الطموح ، فما أن بدأت الثورة على البابوية حتى استولوا على أملاك الأديرة والكنائس وضموها إلى إماراتهم. كذلك كانت بعض البلاد يحكمها ملوك غاشمون متعصبون ، لذلك رأت شعوبها فى الانقلاب الدينى فرصة للتحرر والاستقلال .

★★★

الإصلاح البروتستانتى فى ألمانيا : السبب المباشر الذى أدى إلى ثورة مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) كان موضوع صكوك الغفران التى أثيرت عام ١٥١٧م. فقد احتاجت

البابوية فى أوائل القرن السادس عشر إلى الأموال لإعادة بناء كنيسة القديس بطرس فى روما ، فقررت منح غفران أو كفارة إلى كل من يدفع بإرادته مبلغا معينا من المال لأجل عمارة الكنيسة ، فيثاب كما تثاب أعمال التقوى. وقد أرسل البابا مندوبين عنه إلى مختلف البلاد لتحصيل هذه التبرعات وتوزيع صكوك الغفران فى مقابلها. وفى عام ١٥١٧ بدأت الدعاية فى ألمانيا ، ونُظمت الترتيبات لجباية الأموال ، واستخدموا عمال بعض المصارف الكبرى فى المدن فهاجت الأفكار وقامت الاحتجاجات من كل جانب ووقعت الفضيحة عندما جاء مندوب البابا يوم ٣١ أكتوبر عام ١٥١٧ إلى كنيسة وتنبرج للدعاية لهذه الصكوك ففوجئ بمنشور مؤلف من خمس وتسعين مادة تنتقد الصكوك باسم الدين. وقد وقع هذا النقد أحد الأساتذة الكبار بجامعة تلك المدينة وهو "مارتن لوثر" (١٤٨٣ - ١٥٤٦) وكان عمره وقتئذ ٣٤ عاما ، وكان راهبا ولد فى مدينة إبسلين من أعمال مقاطعة سكسونيا عام ١٤٨٣ ، وقد أرسله والده إلى الجامعة لكى يصبح محاميا ، لكنه صمم أن يصبح راهبا ، فدرس اللاهوت فى إحدى الجامعات الكبرى وعُين بعد تخرجه أستاذا فى جامعة وتنبرج وحظى بشهرة عظيمة. كان شخصية قلقة ، كثير التفكير فى أمور الدين والخلاص والجنة والنار ،

وتوصل أخيراً إلى الاعتقاد بأن الإيمان هو الذى ينقذ الإنسان ، وأن ما تمارسه الكنيسة من عبادات لا يفيد شيئا فى الآخرة. وقد اجتمعت فيه السمات اللازمة لحاملى الأفكار، فهو إنسان شديد الحساسية ، وذو حياة غريبة ومزاج خاص، فآمن به طلاب جامعة وتنبرج . وحين أثيرت قضية صكوك الغفران وجدها فرصة للمناداة بأفكاره. وعلينا أن نفهم أولا ما هى صكوك الغفران فهما جيدا لأن كثيرا من الخلط يحوم حول فهمها، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية تعتقد أنه إذا مات شخص بعد ارتكابه خطيئة لم يعترف بها فلا مناص من هلاك روحه. أما إذا اعترف بإخلاص لكاهن ما ، فإن الله يغفر له وينقذ روحه ، لكنه مع ذلك لا ينجو تماما من العقاب. وهذا العقاب قد يكون عن طريق الصوم والصلوات والحج أو القيام بعمل آخر صالح. وكان من المفترض أن معظم الناس يرتكبون خطايا حتى أنهم رغم اعترافهم وبؤسهم لابد أن يمروا على ما يُسمى بالمطهر بعد موتهم، فيطهرون عن طريق الألم قبل دخولهم الجنة. وصك الغفران كان عبارة عن وثيقة يوافق عليها البابا نفسه تعفى الشخص الذى يمتلكها من جانب مما يعانيه فى المطهر أو من كل ما يعانيه ، فهو لا يغفر الخطايا ولا يحل محل الاعتراف والتوبة الحقيقيين ، بل إن صك الغفران ما كان إلا ليقلل العقاب الذى يناله الخاطئ فى

هذا العالم أو فى المطهر قبل دخوله الجنة. وكانت هذه الصكوك تباع مرتفعة الثمن للأغنياء وتوهب مجانية للفقراء. وبالطبع كان ممثلو البابا متحمسين لجمع أكبر مقدار ممكن من الأموال ويبذلون كل ما فى وسعهم لإغراء الجمهور على شراء صكوك الغفران إما لهم وإما لموتاهم الذين فى المطهر. وفى حماستهم كانوا يتحدثون عن صكوك الغفران حديثا لا يخلو من مآخذ ينتبه إليها كل رجل من رجال الدين بل كل شخص عادى يفكر .

هذه هى صكوك الغفران التى اعترض عليها لوثر وقال إنه يجب أن يعرف الناس أنه لو كان البابا يعرف حقيقة المبشرين بالغفرانات لفضل أن تصبح كنيسة القديس بطرس رمادا ، وأن تقام بجلد رعاياه ولحمهم وعظامهم .

ولقد أرسل لوثر خطابا إلى النبلاء الألمان الذين يسميهم حكام ألمانيا طالبا منهم أن يصلحوا من مساوئهم طالما كان يرى عبث الانتظار إلى أن تقوم الكنيسة بذلك ، وأوضح ذلك بقوله إن هناك ثلاثة جدران تحتمى خلفها البابوية عندما كان يقترح شخص ما أن تُصلح من عيوبها. أما أولها فكان ذلك الإدعاء أن رجال الدين يكٌونون طبقة مستقلة تعلو حتى على الحكام المدنيين الذين لم يكن لهم حق معاقبة رجل الدين مهما كان شريراً أما الجدار الثانى فيزعم سمو البابا حتى على

أعظم المجامع الكنسية حتى أن ممثلى الكنيسة أنفسهم لا حق لهم فى تنبيهه إلى الخطأ والصواب. أما ثالث الأمور فهو أن البابا يدَّعى حقه وحده فى تفسير معنى الأناجيل حين يختلط فهم نص دينى ، ومن ثم فلا يمكن أن تكون هناك معارضة حتى ولو بنصوص الكتاب المقدس. وقد بدأ لوثر يحطم هذه الجدران بأن يوضح أولا أنه ليس هناك ما هو مقدس فيما يتعلق برجل الدين إلا فيما يتصل بمهام منصبه ، فإذا لم يخلص لعمله فمن الواجب خلعه من وظيفته فى أية لحظة ، تماما كما يُطرد الفلاح أو العامل غير الكفء ، وأضاف لوثر إلى ذلك أنه من واجب السلطة المدنية أن تعاقب رجل الدين الذى يخطئ تماما كما تعاقب أقل الناس شأنا، فإذا ما تحطم هذا الفاصل الذى يفصل بين الناس ورجال الدين تحطمت بالتالى بقية الفواصل لأن سيطرة رجال الدين كانت هى حجر الزاوية فى كنيسة العصور الوسطى .

لم يكتف لوثر بندائه للإصلاح الدينى فقط ، بل نادى أيضاً بالإصلاح الاجتماعى وذلك فى ختام الخطاب الذى وجهه إلى النبلاء حتى ينجح الشعب الألماني. فقد وجد لوثر أن نظريته الدينية تتطلب فى الواقع ثورة اجتماعية ، فرأى تخفيض الأديرة إلى العُشر ، والسماح للرهبان بترك الأديرة إذا لم يجدوا فى تلك الحياة طريقهم الذى يريدونه ، فلا

تصبح الأديرة سجونا بل مستشفيات وملاجئ لمرضى الروح.

هكذا قامت الكنيسة اللوثرية البروتسانتية على اتباع تعاليم الإنجيل فقط دون سائر الكتب ودون التعاليم التى وضعها آباء الكنيسة والمجامع الدينية ، لذلك سُمىَّ أتباعها بالإنجيليين ، وهى تعاليم تبتعد كذلك عن عبادة العذراء والقديسين والتمسك بالحج والصوم وبقية التحريمات الجسدية .

ومن جهة نظام الكنيسة وضعت قواعد جديدة لتنظيمها وسمحت بزواج الكهنة وعدم ضرورة ارتدائهم زيا خاصاً بهم يميزهم عن بقية الشعب ، وعدم انتظامهم فى ترتيب تصاعدي. أما من ناحية الطقوس الكنيسة فقد أصبحت الصلاة باللغات القومية ، وأبطلت الزخارف والتماثيل فى الكنائس ، ولم يعد هناك حجاب بين الهيكل والناس ، وزاد الاهتمام بالتراتيل والموسيقى الدينية. كما أضاف جون كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) إلى ذلك أن الكنيسة يجب أن تكون جمهورية مستقلة بنفسها ليس لها رؤساء تعينهم الدولة ، بل تشرف عليها جماعة من حكماء الرعية وشيوخها ، لذلك سُميت بالكنيسة المشيخية. فالمؤمنون هم الذين ينتخبون الأشخاص الذين يقودونهم .

وهكذا نجد بذور النظام الديموقراطى الذى بدأ يتفتح فى

الحياة السياسية فى فجر عصر النهضة الأوربية ينعكس بدوره على النظام الكنسى الجديد. وكما كانت هناك مطالب شعبية لوضع حد للنظام الاجتماعى الإقطاعى واستبدال نظام أكثر ديمقراطية به يكون فيه الشعب مشتركا بنصيب من شئون الحكم ، هكذا كانت هناك كذلك مطالب دينية يطالب فيها الشعب أن يكون وحده صاحب الاختيار لمن يقودونه ، وكما كان الجمهور يطلب المساواة أمام القانون ، كذلك أخذ يطالب بالمساواة أمام الله . وكما كان يطالب بالقضاء على نظام النبلاء التصاعدى الإقطاعى ، كذلك كان الاتجاه نحو القضاء على نظام رجال الدين التصاعدي. وقد أعقبت بالفعل انتشار آراء لوثر ثورات الأشراف والفلاحين ، فمن ناحية فإن الفرسان باعتناقهم هذا المذهب استفادوا من أملاك الكنيسة ، بل إن بعض الرؤساء الروحيين انقلبوا بدورهم إلى أمراء زمنيين بعد دخولهم فى المذهب الجديد. بينما نجد من ناحية أخرى أن الفلاحين قاموا بدورهم يطالبون عام ١٦٢٠ بمطالب فى منشور وزعوه يحتوى على اثنتى عشرة مادة نوردها هنا لنوضح مدى الصلة بين التغيير الدينى والتغيير الاجتماعى .

أن ينتخبوا قسيسيهم ، وإذا اتضح عدم استقامتهم يعزلونهم .

الضرائب العينية (أى التى ليست نقدا بل من المحصول الذى كان عادة من الحبوب) يُدفع بعضه كمرتب للقسيس والباقى يذهب للفقراء ، أما الضرائب الصغيرة فتُلغى .

إلغاء الرق لأن المسيح خلص الجميع بدمه الثمين .

حيوانات الصيد والسمك والطيور حرة كما خلقها الله .

الأغنياء الذين يمتلكون الأرض أى الإقطاعيون ، يجب إعادة النظر فى هذا الوضع.

إلغاء السخرة وإعطاء الأجر عن العمل .

تحديد خدمات الفلاحين بعقود وما يزيد على ذلك تدفع عنه الأجور .

الأجور تكون مناسبة .

إلغاء العقاب التعسفى .

إلغاء حق السيد الإقطاعى فى انتقائه خير محصول مستأجريه .

إعادة المجالس الشعبية .

أن يؤيد الإنجيل كل هذه الاقتراحات ، وتلغى كل مالا يتفق معه .

وقد أعلن الفلاحون أنهم سيرفعون صوتهم إلى الله كى يخلصهم ممن يضطهدونهم ، وقد قال لوثر فى خطابه إلى النبلاء "أنكم تأخذون من الفلاح ثمرة أتعابه لكى تنفقوه على

ملذاتكم وترفكم" . أما الفلاحون فحين لم يجدوا من يستجيب لمطالبهم تحولوا إلى ساحة العمل فأخذوا يهاجمون الأشراف والأديرة ويهددون سكانها ، وقد وجد الأمراء الألمان الكاثوليك والبروتستانت أنفسهم مهددين بهذه الحركة ذات الصبغة الديمقراطية وخافوا من سقوط جميع السلطات الإقطاعية ومن حدوث انقلاب سياسي واجتماعي في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، فاتفقوا معا للقضاء على تلك الحركة، وشجعهم لوثر على ذلك لأنه رأى أن الثوار يتطرفون في تصرفاتهم وآرائهم الدينية ، والواقع أن الفلاحين لم يكونوا ينتظرون هذا الموقف من لوثر وهو ابن فلاح مثلهم ، وكان لتشجيعه في مقاومتهم أكبر الأثر في المذابح التي اقتُرفت في ذلك العهد. ولما هاجم النبلاء الفلاحين وقتلوا منهم عشرة آلاف نفس ، عاد لوثر ليعلن أن روح هؤلاء المستبدين لا سند لها ، كلها جبن ، بعيدة عن كل تفكير ، وأنهم يستحقون أن يكونوا عبيدا للشعب. لكن هذه الكلمات جاءت متأخرة ، حتى أن الفلاحين قالوا إن المذهب الجديد ليس لهم، وأن لوثر كاذب ، واعتبروه خائنا لقضيتهم. وكانت نتيجة هذه الهزيمة للفلاحين أن قضيتهم ظلت كما هي لعدة قرون مقبلة ، أي حتى أواخر القرن الثامن عشر عند اندلاع الثورة الفرنسية (١٧٨٩ - ١٧٩٩) .

أما لوثر فقد كانت نتيجة انتقاداته للكنيسة أن وصفه الإمبراطور شارل الخامس (ولد عام ١٣٣٨ وتولى الملك ما بين عامي" ١٣٦٤- ١٣٨٠ ، شيد متحف اللوفر وسجن الباستيل ووضع أسس المكتبة الوطنية) ، وصف لوثر بأنه خارج على القانون ، لكن منتخب سكسونيا منحه الملجأ حيث أقام في قلعة جوتنبرج ليترجم الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية (وهى لغة الحديث فى ذلك الوقت فى مقابل اللاتينية التى كانت لغة الكتابة) وذلك حتى يقرؤه الشعب ولا يعود قاصرا على طبقة رجال الكهنوت. ولم يلبث أن انحاز إلى مذهبه بعض الأمراء الألمان وقاموا بثورة فى عام ١٥٢٩ على أوامر شارل الخامس المشددة ضد حريتهم الدينية فسُموا بالمحتجين أو البرتستانت Protestantووقعت معارك بينهم وبين الإمبراطور انتهت بصلح أوكزبرج فى عام ١٥٥٥ بين الطرفين - وكان لوثر قد مات - وبموجبه تُعطَى الحرية لكل أمير فى اختيار الكاثوليكية أو المذهب اللوثري. وعلى سكان كل إمارة أن يخضعوا لمذهب أميرهم أو يهاجروا إلى إمارة أخرى. وهكذا مُنحت الحرية الدينية لأمراء الإقطاع فقط .

وقد امتدت اللوثرية فشملت بروسيا التى اعتنقها رئيسها الدينى مستفيداً بذلك بأن حول منطقة بروسيا إلى دوقية وأصبحت له السلطة الوراثية هناك ... وهكذا نشأت دوقية

بروسيا التى ستسيطر فيما بعد على كل ألمانيا وتوحدها ، ومن هناك انتشرت اللوثرية فى بلاد البلطيق .

أما السويد فقد استقلت وكانت تابعة للدانمرك منذ القرن الرابع عشر ، وكان سكان السويد مستائين من سيطرة الدانمرك عليهم فقاموا بثورة تحت قيادة جوستاف أحد النبلاء الأشراف الذى أعلن ملَكيته وصادر أموال الكنيسة الكاثوليكية ليحصل على المال اللازم واعتنق المذهب اللوثرى وتبعه شعبه أيضاً .

أما الدانمارك نفسها فكانت فى ذلك الوقت تحت حكم ملك مكروه من الأشراف فثاروا عليه واعتنقوا البروتستانتية ونصبوا عليهم أميرا لوثريا .

الإصلاح في سويسرا وفرنسا :

لم يكن مارتن لوثر ممثل ما يُعرف بالأفكار الإصلاحية وحده ، بل ظهر فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى مصلحون آخرون أرادوا الانفصال عن روما وترك البابوية ، فظهر زوينجلى (1531 - 1484)Zwingli فى سويسرا، وجون كالفن (1564 - 1509) Calvinفى فرنسا اللذان كانت نتيجة انفصالهما المذهب البروتستانتى ، كما قام هنرى الثامن (١٥٠٩ – ١٥٣٤) ملك انجترا بتأسيس كنيسة منفصلة عن روما على أثر رفض البابا زواجه بكاترين

الأرجـوانيـة Katherine Of Argonوأعلن أن ملك إنجلتـرا هو رأس هذه الكنيسة.

وسنتناول باختصار شديد هذه الحركات الثلاث :

أولاً:زوينجلي والإصلاح في المقاطعات السويسرية :

كان مركز حركة الإصلاح فى سويسرا مقاطعة تزوريخ وكـاهن كـاتدرائيتـهـا زوينجلى وحين قـامت حـركة لوثر أعلن زوينجلى الحرب على رؤساء الكنيسة بسبب صكوك الغفران أيضـاً ، ثم تشـجع إثر انتـصـار لوثر وقطع العـلاقـات مع الكنيسة الكاثوليكية وتبعه بذلك مواطنوه .

وقد وُلد زوينجلى فى أسرة غنية ودرس فى جامعتَيْ فيينا وبال ، وذهب إلى أبعـد من لوثر فى قـضـيـة إلغـاء الرتب الكهنوتية ، واقتصر فى الصلوات على الوعظ بدون موسيقى وإنشاد. وهنا نلاحظ أن آراءه لاقت نجاحا كبيرا بين مواطنيه لأنه أضاف برنامجا سياسيا إلى جانب برنامجه الديني. فقد أيد مطالب الشعب من رؤساء المقاطعات الذين يتاجرون بدماء شعـوبهم ويبيـعون السويسريين للدول الأخرى بصفـة جنود مستأجرين فجاهر بعداوته الصريحة للخدمة العسكرية خارج سويسرا. وكان أثر آرائه كبيرا ، فهاجمت الجماهير الكنائس وخربوا تماثيل القديسين وصـورهـم ، ومُنعت من عام ١٥٢٩ كل عبادة كاثوليكية .

وقد انتشرت أفكار زوينجلى فى مدن بال وبرن ، وحاول نشرها فى مقاطعات سويسرا الأخرى لكنه فشل بل قُتل فى أول نزاع مسلح بين البروتستانت والكاثوليك عام ١٥٣١ وظلت سويسرا منقسمة بين البروتستانت والكاثوليك حتى اليوم. ثم وفد مصلح آخر من فرنسا إلى جنيف هو جون كالفن ليجعل هذه المدينة معقلاً لحركة الإصلاح فى أوروبا الغربية .

ثانياً : كالفن والإصلاح في فرنسا

ولد كالفن فى فرنسا ، وبعد أن درس فى جامعة باريس وفى جامعات أخرى انضم إلى حركة الإصلاح ، فاضطر أن يغادر بلاده وعاش مدة فى مدينة بال السويسرية حيث ألف كتابه "مبادئ الدين المسيحي" ويتميز هذا الكتاب أنه من أوائل كتب النثر المهمة التى دُونت بالفرنسية .. وكانت أفكاره تختلف بعض الاختلاف عن أفكار لوثر، فالبروتستانتية الكلفانية أكثر بساطة من اللوثرية ، وفيما يلى بعض نقاط هذا الاختلاف :

أ- من جهة العقائد كان كالفن مثل لوثر لا يعترف إلا بسلطة الكتاب المقدس ولا يعترف بسلطة البابوات والمجامع الدينية وكان يضع الإيمان فوق الأعمال .. لكنه اعتقد أن الله يعطى الإيمان لمن يشاء ، فالإنسان يُخلق إما ناجيا أو معذَّبا،

لأنه مسيَّر لا مخيَّر ، والمسألة مسألة قضاء وقدر .

ب- من جهة تنظيم الكنيسة وطقوسها أراد بها العودة إلى بساطتها الأولى فألغى مراتب رجال الدين وتسلسلهم فى السلطة (وهو مظهر من مظاهر تحطيم النظام الإقطاعى التصاعدي) وجعل الإشراف على الكنيسة بيد جماعة من حكماء الرعية وشيوخها ، لذلك سُميت بالكنيسة المشيخية. كذلك جعل العظة أساس الخدمة الكنسية يقوم بها راعى الكنيسة أو واعظ تعينه الكنيسة. وبينما ترك لوثر للأمراء الألمان بعض السلطة على كنائس بلادهم نجد كالفن يرفض أية سلطة للأمراء ، وقال إن الكنيسة يجب أن تشكل جمهورية مستقلة تحكم نفسها بنفسها ليس لها رؤساء تعيّنهم الدولة ، فالمؤمنون ينتخبون الأشخاص الذين يقودونهم والذين يقومون بمراقبة الأخلاق والعادات ، كذلك ينتخبون رجال الدين. وهكذا اعتبر كالفن الدولة تابعة للكنيسة ، ومن هنا نجد أنه أكثر ديموقراطية من لوثر ، إلا أنه أكثر تطرفا كذلك حتى أن سكان جنيف ملوا من تطرفه ومن حياة التقشف التى فرضها عليها فطردوه ، لكن الفوضى عمت البلاد فاستدعوه وأصبح يراقب الأشخاص فرديا فى منازلهم ويقاوم كل مختلف بالقوة.

وقد انتشر مذهب كالفن فى مدينة جنيف وفى ألمانيا حتى

أنه زاحم اللوثرية ، لكن اللوثرية ظلت محتفظة بالأكثرية ، بينما انتشر مذهبه فى فرنسا والأراضى المنخفضة (هولندا وبلجيكا فيما بعد) كما انتقل إلى اسكتلندا .

أما فى فرنسا فأتباع كالفن كانوا أقلية ، لذلك أخذ الملوك يضطهدونهم لاسيما وأن بعض الكالفانيين كانوا من وجهاء البلاد الذين طمحوا إلى الزعامة والنفوذ ، ثم ما لبث الأمر أن تطور إلى اضطهادات ومنازعات وحروب بين الكاثوليك والبروتستانت ، وأصبح لكل من الفريقين أحزاب ومطامح سياسية حتى أن تاريخ فرنسا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر كان سلسلة حروب وفتن ، واستمرت المشاكل والمنازعات الدينية حتى القرن السابع عشر ، ولم يظفر أتباع كالفن بحريتهم الدينية تماما حتى قيام الثورة الفرنسية .

أما فى الأراضى المنخفضة (هولندا وبلجيكا الآن) فقد كان يحكم البلاد فى النصف الثانى من القرن السادس عشر فيليب الثانى (١٥٢٧ - ١٥٩٨) ملك إسبانيا وهو من آل هيبوزج. وكان العدو الأكبر للبروتستانتية. وأسس محاكم التفتيش الرهيبة لمحاربتها. وكان يعامل سكان الأراضى المنخفضة بمنتهى القسوة حتى أنهم ثاروا ضده واتجدوا فى عام ١٠٥٧٦ لمقاومته ، لكن الولايات الجنوبية الكاثوليكية انسحبت من الاتحاد ، بينما أعلنت الولايات الشمالية

البروتستانتية الاستقلال عام ١٥٨١ بزعامة وليم الصامت ولم يتم الاعتراف بها إلا عام (١٦٤٨) بعد ما يُعرف بحرب الثلاثين عاما. ومع أن وليم قُتل في بيته بعد انتخابه حاكما للبلاد إلا أن الولايات الشمالية التي عُرفت فيما بعد بهولندا - ناضلت في سبيل استقلالها وساعدتها على ذلك إنجلترا ، وهكذا نجد أن الإصلاح الديني يسير جنبا إلى جنب مع التطور السياسي .

الانقلاب الإنجليكاني في إنجلترا : كانت إنجلترا مهيأة للاستقلال عن سلطة البابا ، وقد قامت فيها حركة جون ويكلف الإصلاحية في القرن الرابع عشر. إلا أن الفرصة لم تسنح إلا في القرن السادس عشر في عهد الملك هنري الثامن (١٤٩١ - ١٥٤٧ وتولى الملك ١٥٠٩) فقد ألغى هذا الملك سلطة البابا عام ١٥٣٦ ، وفصل بلاده عن كنيسة روما لأسباب شخصية تتعلق بقضية طلاقه زوجته كاترين Cathrine Of Aragon حيث رفض البابا أن يعتبر زواجه لاغيا ، وكانت لم تنجب إلا ابنة وهو يريد وريثا من الذكور خشية ألا تتمكن ابنته الوحيدة ماري من تولي السلطة بعده ، فحمل الملك كبار الكهنة وأعضاء البرلمان على الاعتراف به كرئيس أعلى لكنيسة إنجلترا ، وقطع كل علاقة بالبابوية ، ثم استولى على الأديرة في بلاده وممتلكاتها لحاجته إلى المال ، إلا أنه بالرغم

من ذلك لم يقتنع بالأفكار الإصلاحية ، وظل كاثوليكى العقيدة، لذلك لا يمكن اعتباره مؤسسا للبروتستانتية فى إنجلترا ، وإن أمكن اعتباره ممهدا لها بتصرفه. وقد تزوج هنرى الثامن مرات عديدة ، ثم اعتلى العرش بعده ابنه إدوارد السادس (١٥٣٧ - ١٥٥٣م) الذى تولى الحكم وهو فى التاسعة من عمره ، فقام رجال الحكم بإدخال البروتستانتية إلى إنجلترا وكانوا من محبذيها ، وألغيت الصور الدينية فى الكنائس ، ووُضع كتاب للصلاة بموافقة البرلمان ، كما وضعت أسس المذهب الجديد فى ٤٢ مادة أصبحت فيما بعد تسعة وثلاثين. وحين مات إدوارد السادس ورثته أخته مارى. وكانت كاثوليكية فأعادت المذهب الكاثوليكى واضطهدت البروتستانت بقسوة. ولم تتوطد البروتستانية فى انجلترا إلا فى عهد الملكة إليزابيث (١٥٥٣ - ١٦٠٣م) ابنة هنرى الثامن من زوجته بولين ، وتُعتبر المؤسسة الحقيقية للمذهب المعروف بالمذهب الإنجليكانى ، وهو مذهب خاص بإنجلترا (ويُسمى بالعربية الكنيسة الأسقفية) لا يتبعْ أفكار لوثر أو كالفن إنما هو وسط بين الكاثوليكية والبروتستانتية. فالقس مثلا يرتدى زيا خاصا أثناء الصلاة داخل الكنيسة كالكاثوليك ، ثم يصبح فى زى الشعب خارجها كالقس البروتستانتى ، وجدران الكنيسة

تخلو من الصور لكن بها نقوشاً وزينات ، والهيكل ليس موجودا ولا ملغياً، بل هو بين بين يقف فيه الكاهن لكن دون حجاب بينه وبين المصلين .

وقد اعتمدت إليزابيث على المذهب الإنجليكانى فى الحكم وكانت تخشى مناوأة الكاثوليك الذين سعوا لأن يستبدلوا بها ملكة كاثوليكية ، فاضطهدت أتباع سائر المذاهب الأخرى ، وكان لهذا الاضطهاد عواقب ذات أهمية سياسية لأن أتباع بعض المذاهب نزحوا من البلاد وأقاموا فى دول أخرى ينشرون فيها لغتهم وتقاليدهم ويصبغونها بالصبغة الأنجلوسكسونية على ما نحو ما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية .

الإصلاح الكاثوليكى : وقد شعرت الكنيسة الكاثوليكية بخطورة هذه الانقلابات واتساع حركة الثورة عليها والانفصال عنها ، فبادرت من جهة إلى إصلاح أمورها ، ومن جهة أخرى اتخذت وسائل الدفاع عن نفسها .

ففى عام ١٥٤٥ انعقد مجمع برانت للنظر فى إصلاح الكنيسة والدفاع عنها ولم ينته من أعماله حتى عام ٥٦٣ الأن جلساته كانت متقطعة. وقد أبقى على العقيدة الكاثوليكية وأجاب على الذين انتقدوها وخالفوها ، إلا أنه أصلح المساوئ الكنسية وأقر بوجوب فتح المدارس الدينية (اللاهوتية) لتثقيف

رجال الدين ، وإجبار الكهنة على الإقامة فى مراكز وظائفهم الدينية. ومن ناحية الدفاع اتخذت الكنيسة الكاثوليكية الوسائل لمحاربة البروتستانت ، فنظم البابوات وبعض الملوك محاكم التفتيش التى كانت قد أنشئت فى القرن الثالث عشر لمعاقبة الخارجين على الكاثوليكية والقضاء على المذاهب الجديدة. كذلك قرر المجمع نشر دليل سنوى يتضمن أسماء الكتب التى يحرّم على الكاثوليك قراءتها .

كذلك نشأت رهبنة جديدة للدفاع عن المذهب الكاثوليكى والبابوية باسم "اليسوعية" Jeswit أسسها القديس أغناطيوس دى لويولا عام ١٥٣٤ ، وكان ضابطا أسبانيا ، وأتباع هذه الرهبنة وضع لهم لويولا نظاما عسكريا مركزيا قاسيا ، واشترط فى اختيار أتباعه أن يكونوا نشيطين أصحاء ، كما اشترط الطاعة العمياء ، وإخلاص التابعين للرؤساء ، وسعى لنشر الكاثوليكية والدفاع عنها بالوعظ والإرشاد والتبشير وإقامة المدارس والتعليم. ولقد أسست هذه الرهبنة كثيرا من المدارس أصبح بعضها جامعات ، كما أرسلت البعثات التبشيرية إلى مختلف البلاد حتى وصلت إلى الشرق الأقصى وأمريكا الجنوبية وأواسط أفريقيا ، كما دخلوا الدول العربية فأقوموا الأديرة فى حلب عام ١٣٢٧ ودمشق ١٦٤٣ وصيدا وطرابلس لبنان ١٦٤٥ وعنطورة كسروان ١٦٥٦ وبكفيا ١٨٣٣ وغزير ١٨٤٣ وجامعة القديس

يوسف فى بيروت ١٨٧٥ ومدرسة القاهرة ١٨٧٩ . وكان من تأثيرها أن انحازت بعض الدول إلى الكاثوليكية ، لكننا من جهة أخرى نلاحظ أنها مهدت لدخول المستعمرين من الدول الأوربية التى تدين بالكاثوليكية ، ومع أن هؤلاء اليسوعيين حاولوا بذل جهودهم للاحتفاظ بنفوذهم حتى أنهم تمتعوا فى عهد البابا "بيوس السابع" (١٨٠٠ - ١٨٢٣) بجميع حقوقهم وبمنشور خاص صدر عام ١٨١٤ ، إلا أن قيام ثورة فبراير عام ١٨٤٨ والتى نصّب فيها لويس نابليون نفسه رئيسا للجمهورية الثانية (ثم نصب نفسه فيما بعد فى عام ١٨٥٢ إمبراطورا باسم نابليون الثالث) كان لها الأثر فى تغيير وضع أوربا السياسى ، مما أدى إلى جعل كل دولة من الدول الكاثوليكية تتصرف فى شئونها الدينية طبقاً لما تتطلبه مصالحها المدنية. وبهذا لم يعد للنفوذ البابوى أثر سياسيّ إلا فى إيطاليا وحدها. وقد أخذ هذا النفوذ يضعف شيئا فشيئا حتى لم يعد الشعب الكاثوليكى - الذى كان فى يوم من الأيام هو العالم المسيحى كله - أكثر من ٢٤٠ مليون الآن من بين الخمسائة والخمسين مليون مسيحى فى العالم ، كذلك انحصر السلطان البابوى فسُلب كثير من حقوق البطريركيات فى الكنيسة الشرقية ومن امتياز بطاركتها بحيث أصبح البطريرك لا يستطيع إبرام شىء إلا بعد تصديق يأتى من

الأساقفة ، وصارت الدعاوى المهمة تحال إلى الملوك والأباطرة حتى أن الملك بطرس الأكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥ وقيصر روسيا ١٦٨٢) ألغى - بعد استقلال الكنيسة الروسية عن كنيسة الروم الكاثوليكية - البطريركية وأحل محلها السنودس المقدس وهو مجمع من رجال الدين يختارهم الإمبراطور أو الملك ويرأسه أحد الأشراف نيابة عنه ، وبذلك انضمت الكنيسة الروسية إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية.

وقد انقسمت الكنيسة الأرثوذكسية بدورها ، فبقى قسم منها خاضعا لطريركية القسطنطينية (وهم العيقوبيون والنساطرة والأقباط والحبش والأرمن والكلدانيون) ، بينما استقل الروس كما ذكرنا ، وخضع قسم ثالث للبابا (وهم الروم الكاثوليك) سكان جبل لبنان الذين يُعرفون بالموارنة. وبلغ عدد الشعب الأرثوذكسى اليوم حوالى ١٢٠ مليوناً .

أما الكنيستان البروتستانتيتان اللوثرية والكلفينية فقد أخذتا تتقدمان تقدما مطردا فى شرح الكتاب المقدس وعلم اللاهوت. وسرعان ما تضاربت آراء معتنقيهما ونشأت المنازعات والانشقاقات وتلا ذلك بالضرورة ظهور المذاهب المختلفة. فظهرت فى الكنيسة اللوثرية مذاهب المعماديين والإخوة البليموث والأصحاب (الكويكرز) وأورشليم الجديدة والمشيخيين والمتحدين والعقليين والعصريين ... كما ظهرت

فى الكنيسة الكلفينية مذاهب الأسقفيين والبيوريتانيين وسواهم ، ويربو عددهم الآن فى جميع أنحاء العالم على ٢٠٠ مليون .

وكل كنيسة من هذه الكنائس أو المذاهب والشيع أجمعت معتقداتها الدينية فيما أسمته "قانون الإيمان" أو أصول الإيمان أو التعليم المسيحى تقبل بمقتضاه المنضمين إليها الداخلين فى عضويتها وتُنَظِّم بموجبه وسائل عبادتها وتعاليهما وأنظمة مهماتها وإدارتها. وهذه القوانين تتجدد فى كيفها وكمها بتجدد الظروف وتختلف باختلاف الآراء فى الشرح والتفسير لنصوص الكتاب المقدس. وننقل هنا بعض ما جاء فى القانون الترنتى نسبة إلى مجمع ترنت (١٥٤٥ – ١٥٤٧) الذى رأسه البابا بولس الثالث (١٥٣٤ – ١٥٤٩) لمواجهة أزمة الكنيسة الكاثوليكية بسبب بروز الإصلاح البروتستانتى .

أومن بإله واحد ، آب ضابط الكل ، خالق السماء والأرض، وكل ما يُرى وما لا يرى ، وبرب واحد : يسوع المسيح بن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور. إله من إله ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر الذى به كان كل شئ ، الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء

وتجسد بالروح القدس من مريم العذراء ، وتأنس أيضاً ، وصلب عنا فى عهد بيلاطس البنطى ، وتألم وقُبر وقام أيضا فى اليوم الثالث على ما فى الكتب المقدسة ، وصعد إلى السماء، وهو جالس عن يمين الأب، وسيأتى أيضاً بمجد ليدين الأحياء والأموات ، الذى ليس لملكه نهاية. وأومن بالروح القدس ، الرب المحيى المنبثق من الأب والابن ، المسجود له والممجد مع الأب والابن معا ، الناطق بالأنبياء والقديسين ، وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية. وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وأنتظر قيامة الموتى، وحياة الدهر الآتى ، آمين .

د. محمد كامل حسين وقريته الظالمة

١٠- هذا الكتاب موضوعه غريب على تاريخ الفكر الإسلامى لأنه يتناول يوم الجمعة الذى تم فيه الحكم على المسيح بالصلب ، يقول المؤلف "إن الجريمة تمت فيما يتعلق بالإنسان حين حُكم على المسيح بالموت ، ولا ينقص من إثمها أن رفعه الله إليه" فالدكتور محمد كامل حسين كمفكر إسلامى يفرق بين الحكم على المسيح بالصلب وبين وقوع الصلب نفسه الذى لا يعترف به الإسلام .

ولقد عرض الفكر الإسلامى فى تاريخه لهذا الحدث عند تعرضه للآيات القرآنية التى وردت فى هذا الصدد ، لكنه لم يؤلف المؤلفات الخاصة به أما الدكتور محمد كامل حسين فكان أول مفكر إسلامى – على ما أعتقد – يفرد كتابا عن يوم الجمعة مستندا فى أغلب ما كتب إلى الأحداث والشخصيات كما روتها الأناجيل .

والكتاب مقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول يتناول يوم الجمعة عند أعداء المسيح الذين كانوا يطالبون بموته وهم بنو إسرائيل ، والقسم الثانى يتناول يوم الجمعة عند الذين كانوا يؤيدونه إن خفية وإن علانية وهم حواريوه أو تلاميذه ، والقسم الثالث يتناول يوم الجمعة عند الذين لا يهمهم إلا

حفظ النظام فى المستعمرة اليهودية وهم الرومان ، وبذلك استوعب المؤلف الموقف من وجهاته الرئيسية الثلاث .

ويعرض المؤلف لهذه الاتجاهات من خلال الأحداث والشخصيات التى تعيش هذه الأحداث ، وبعض هذه الشخصيات ورد ذكره فى الأناجيل مثل لازار وقيافا والمجدلية وبيلاتوس ، وبعضها من ابتكار المؤلف مثل الحداد الذى صنع المسامير لتوضع فى يدى المسيح عند صلبه ، ومثل راعية الأغنام التى جزعت عندما أظلمت الدنيا ساعة الصلب، والجندى الرومانى الذى أحب المجدلية ، وأصبح من أتباع المسيح عندما أصبحت عشيقته من أتباعه ، ومثل القائد الرومانى الذى حكم على هذا الجندى بميتة شنيعة لأنه أطاع ضميره المسيحى فعد خائناً من وجهة النظر الرومانية .

وقد بذل الدكتور محمد كامل حسين مجهودا مخلصا بحق ليعرض يوم الصلب هذا العرض الجديد الذى يستوعب كل الزوايا. وسأعرض سريعاً للنقاط الأربع الرئيسية التى يقوم عليها الفهم المسيحى لدى المؤلف فى قريته الظالمة ، وهذه النقاط هى : فهمه لفكرة الخطيئة فى المسيحية ، ثم فهمه للصراع بين الضمير والجماعة ، ثم دعوته السلمية ، وأخيراً دعوته إلى فصل الدين عن الدولة .

٢- فهناك أولاً خطأ أساسى فى فهم المؤلف لفكرة الخطيئة فى المسيحية ، فهو يقول إن إحجام الحواريين عن

نصرة المسيح يوم الصلب هى التى حددت مبادئ المسيحية وفلسفتها ، فليست فكرة التكفير والفداء ، وهذا الحزن الغالب على طبع كبار المتمسكين بالمسيحية وخوفهم من الخطايا وحبهم لتعذيب النفس وإرهاقها ، وإكبارهم خطيئة آدم ، وإيمانهم أنها أصل للعذاب الذى تعرض له المسيح لينقذ الإنسانية من آثامها ،، كل ذلك ليس إلا صدى لخطيئتهم الكبرى حين تركوا المسيح لأعدائه (١) .

ويقول فى موضوع آخر على لسان الحواريين: فنحن إذا أنقذنا السيد المسيح أنقذنا الإنسانية كلها من عبء ستنوء به أبد الآبدين (٢) .

ومع ذلك فإن المؤلف نفسه يقرر أن الحواريين لم يحجموا عن نصرة المسيح يوم الصلب بل نشأ بينهم جدل طويل لم يحسمه إلا دخول رسول أوفدوه إلى المسيح يستطلع رأيه، فإذا هو يحمل رسالته إليهم وهى أن انصرفوا إلى العبادة والصلاة وأن يتركوه حتى يتم الله أمره فيه "وهو يقول لكم إنه سيلقاكم بعد أيام ثلاثة فى قرية من قرى الجليل .. وهو يحذركم من العنف ويلومكم على ما بدا منكم يوم قُبض عليه" (٣) وذلك إشارة إلى أنه زجر أحدهم لأنه استل سيفه

(١) قرية ظالمة، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٤، ص ١٣٦ - ١٣٦ .

(٢) المرجع السابق، ص ١١٦ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٢ - ١٣٤

فأصاب به أذن جندى (١) ». ويعترف المؤلف أن هذه الرسالة أحزنت الحواريين حزنا شديدا . فأين إذاً كان إحجامهم الذى بلغ أثره من الضخامة بحيث أصبح أصلا لفكرة الخطيئة فى المسيحية؟

إن الخطيئة فى المسيحية هى خطيئة آدم الأولى حين عصى أمر ربه، والمؤلف يدرك هذا حين يتحدث قائلا : لعل التوراة حين قالت عن آدم إنه أول إنسان لم تقصد إلى أنه أول من مشى على رجلين بل تعنى أنه أول من أدرك الخطيئة وأول من أحس بأثر الضمير فأصبح بذلك إنسانا . ويقوم التفكير المسيحى على أن هذه الخطيئة تحتاج إلى الموت الذى يكفّر عنها، وبهذا يصبح المسيح - طبقا للتفكير المسيحى - ضرورة لابد منها لخلاص البشر، ومن ثم فلا يمكن أن يكون إحجام الحواريين عن إنقاذه من الموت - إن كانوا قد أحجموا - سببا لتضخم الإحساس بالخطيئة لدى المسيحيين.

وضرورة موت شخص ليخلص الآخرين فكرة قديمة موجودة عند كثير من الشعوب التى كانت تقدم ضحايا بشرية لترضى الآلهة وتدفع شرها عنهم . وما موت أوزوريس وتقطيعه إرباً فى أنحاء مصر ليخصب تربتها إلا صورة من هذه الصور. وقصة الفداء نفسها تتكرر فى التوراة بصور

(١) المرجع السابق، ص ١٣١.

مختلفة أهمها صورة الكبش الذي أوجده الله ليفدى به إسحق أو إسماعيل من الذبح.

ولعل لموقف الإسلام من فكرة الصلب دخلا فى فهم الدكتور المؤلف، فالتفسير الإسلامى للآيات القرآنية التى وردت حول هذا الشأن يستبعد وقوع الصلب على المسيح ويرى أن الله رفعه إليه قبل أن يتم الصلب وهذه معجزة من معجزات النبوة، بعكس ما لو تحقق الصلب . ولهذا، فعلى ضوء الفهم الاسلامى لفكرة صلب المسيح يمكن أن يبرر تفسير المؤلف بأن الإحجام عن نصرة المسيح يوم الصلب هو الذى حدد مبادئ المسيحية وفلسفتها.

٣- أما النقطة الثانية فهى أن المؤلف يحاول أن يوضح من خلال سطوره أن الصراع يوم الصلب كان صراعا بين الضمير الإنسانى ونظام قانون الجماعة . يقول المؤلف: فى ذلك اليوم أجمع بنو إسرائيل أمرهم أن يطلبوا إلى الرومان صلب المسيح ليقضوا على دعوته . وما كانت دعوة المسيح إلا أن يحتكم الناس إلى ضميرهم فى كل ما يعملون وما يفكرون،فلما عزموا أن يصلبوه لم يكن عزمهم إلا أن يقتلوا الضمير الإنسانى ويطفئوا نوره (١). وفى موضوع آخر يقول: إن أكبر الجرائم تُرتكب فى سهولة ويسر، إذا وُزعت

---

(١) قرية ظالمة، ص ٢.

توزيعا يجعل نصيب كل فرد أصغر من أن يضطرب له ضميره (١).

كما يقول: إن الصالح العام لأخطر الأوثان وأشدها ضررا حين يُعبد فيطغى على أوامر الضمير (٢). كما يقول أيضا: إن الجماعة لا ضمير لها(٣).

أما أن الصراع كان بين الضمير الإنسانى ونظام الجماعة فهذا حق، لكن المؤلف لم يبين لنا لماذا كان المسيح يمثل الضمير ولماذا كان اليهود يمثلون العنصر الذى من شأنه أن يطفئ نور هذا الضمير،والكتاب ملئ بالتأملات الفلسفية، فليس من الغريب على موضوعه أن يوضح مؤلفه ذلك لأنه لا يستعرض صراع الأحداث والأشخاص فقط بل وصراع الأفكار أيضا.

والواقع أننا إذا قارنا بين الديانتين المسيحية واليهودية نجد أن المسيحية تمثل ديانة الفرد فى مقابل اليهودية التى تمثل ديانة الجماعة أو القبيلة.

ويشير المؤلف إلى هذا التصادم بين الديانتين وآثاره فى أكثر من وضع. فهو يتحدث على لسان رجل الاتهام فيقول : إن الخير والشر واضحان وضوحا لا ريب فيه تتحدث عنهما

---

(١) قرية ظالمة، ص ١٩.
(٢) قرية ظالمة، ص ١٢٣.
(٣) قرية ظالمة، ص ١٩٠.

التوراة،وكنت أحسبهما لا يختلطان، ولكن لم أعد أتبينهما على ما كنت أعهد من وضوح.(١) .

ويقول قيافا عن المسيح إنه لم يؤذ أى فرد من بنى إسرائيل، ولن يؤذيه أى فرد منهم،ولكنه يؤذى إسرائيل، وجماعتهم هى التى ستنتقم منه وإن كره كل واحد منهم أن ينتقم منه بنفسه (٢). والمؤلف فى هذه الجملة واضح فى فهمه للديانة اليهودية أنها ديانة الجماعة وأن المسيحية تهديد لهذه الديانة بهذا الاعتبار، ويستطرد قيافا قائلا عن المسيح : وهو إنما ذهب بالإيمان خطوة أبعد مما ذهب إليه موسى فى شريعته، وما أرى ذلك كفرا بل هى سنة فى الرقى.(٣) لكن رأى قيافا كان رأى فرد،لا يعبّر عن رأى اليهود كجماعة.

فالمسيحية أولا دين المحبة، والمحبة هى التى تسود حين يحترم الفرد أخاه الفرد،أما اليهودية فهى دين الثأر، والثأر قانون القبيلة .

يقول المؤلف على لسان أحد أبطاله: الله هو الحب رأىُ لا يضع من قدر الله،لكنه يرفع من قدر الحب. إن إله هذا الرجل

---

(١) قرية ظالمة، ص ٢٣.

(٢) قرية ظالمة،، ص ٥٦.

(٣) قرية ظالمة، ص ٦١.

لا يكون إلا خيرا(١).

وها هو ذا ابن المفتى يقول عن المسيح: أيجوز لمثل هذا الرجل أن يرتفع فوق ما أمرنا به سبحانه وتعالى . إنه يأمر رجاله أن يحبوا أعداءهم، ونحن وإن كنا أسلم عقلا من أن نستمع إلى هذا الكلام الخلاب لا نستطع أن نسكت عنه، فإن فيه القضاء التام على بنى إسرائيل (٢)، معنى هذا الكلام بتعبير أخر أن فى المحبة قضاء على قانون الثأر .

وقد احترمت المسيحية أيضا فردية المرأة، يقول المؤلف: وأنكر قيافا إنكارا تاما ما حكم به صاحب الدعوة الجديدة فى أمر المرأة التى أراد الناس أن يرجموها. (٣)، لأنه اعتبر هذا تهجما صريحا على أوامر الله، وما كان إنكار قيافا لذلك اللون من التفكير إلا إنكاراً للديانة التى تحترم الفرد. فقد منع المسيح الزواج بأكثر من واحدة ومنع الطلاق إلا لعلة الزنا من أحد الطرفين، بعد أن كان يباح لليهود الزواج بأى عدد من النساء وتطليقهن لأى سبب كان.

وفى المسيحية - كما فى الإسلام - نجد أن كل فرد يتحمل تبعة أعماله فى الحياة الأخرى حيث الجنة والنار، أما

---

(١) قرية ظالمة، ص ٢٣.

(٢) قرية ظالمة،، ص ٥٦.

(٣) قرية ظالمة، ص ٦١.

اليهودية فالمسؤولية جماعية والعقاب دنيوي، ولكى نوضح ذلك نورد ما جاء فى الأصحاح السادس من سفر يشوع عند سقوط أريحا مثلا "إحرقوا المدينة مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد إجعلوها فى خزانة بيت الرب" لهذا نجد أنه من الخيانة فى هذا النظام أن يأخذ الإنسان شيئا كما فعل عاخان بن كرمى بن زبدى بن زارح عندما قال: رأيت فى الغنيمة رداء شنعاريا نفيسا ومائتى شاقل فضة ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلا فاشتهيتها وأخذتها وهاهى مطمورة فى الأرض وسط خيمتى والفضة تحتها. فُعدَّ ذلك مخالفة للأوامر وخيانة منه،ولم تقع المسئولية عليه وحده بل استحق أن يُرجم هو وبنوه وبناته وبقره وحميره وغنمه وكل ما له .

وكما كانت المسئولية جماعية كذلك كان العقاب دنيويا، فالله ينتقم من الآباء فى الأبناء، والآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون. والثواب أيضا دنيوي، تقول التوراة : وأكثِّر نسلك حتى يصبح كنجوم السماء ورمال البحر،وأكرِمْ أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض . وقد لا يعلم الكثيرون أن الجنة والنار لم يرد ذكرهما إطلاقا فى الأسفار الخمسة الأولى والأساسية فى التوراة، ووجودهما فى ديانة ما معناه أن الفرد يتحمل عبء أعماله حتى فى حياته

الأخرى. وهذه فكرة لم تظهر إلا عند الجماعات المستقرة كما حدث في مصر الفرعونية.

كذلك نجد أن الدين اليهودي كان دينا قبليا - أو هكذا كان مظهره - اى أن للجنس علاقة وثيقة بالدين، وقد ينضم إلى أتباعه بعض الأجانب عنه، لكن ليس عن طريق الدعوة والتبشير بل عن طريق المجاورة أو المصاهرة أو الظروف الخاصة، أما المسيحية فجاءت - كما جاء الإسلام - ديانة تبشيرية تخاطب الأفراد بغض النظر عن جنسياتهم وقبائلهم. يقول أحدهم في أحد فصول "قرية ظالمة" تحت عنوان "دار الندوة" إن حب الوطن فضيلة لا ينكر أحد قدرها، لكنها ليست غاية الفضائل في هذا الباب، إن حب الوطن طور من أطوار الرقى الاجتماعي ، فالرجل يبدأ محبا لنفسه ثم يتبين أن في حبه لأسرته وحمايته لها ما يجلب له النفع ويمنع عنه من الأذى ما لا يستطيعه وحده، فتنشأ فيه عاطفة التضحية بنفسه في سبيل أسرته ، ثم يتبين أن حبه لقبيلته أو مدينته أنفع، ثم يتبين له أن حب الوطن والدفاع عنه أنفع .. إلا أن هذا ليس أخر المطاف، بل سيأتي يوم يكون فيه النظام الاجتماعي كافيا لإقناع الناس أن حب الإنسانية والدفاع عنها أجدى على الوطن من حب الوطن وحده، وقد يكون هذا الرجل أول من بلغ هذه الدرجة من الرقى الخلقي (يقصد بذلك

المسيح). ثم يستطرد قائلا "على أنى لا أكتمكم أنى لا أستريح إلى أخذ بنى إسرائيل بهذا المذهب الذى يضع الإنسانية فوق الوطن"، ثم يبرر المتكلم الإسرائيلى هذا الرأى بأنه قد يكون بسبب محنة بنى إسرائيل التى جعلتهم ضعافا أذلاء فى بلادهم، وقد يكون ضعفا منه، فهو مقتنع بالتطور الجديد عقلا لكنه لايؤمن به عقيدة (١). وهكذا نجد أن مؤلف (قرية ظالمة) قد تنبه إلى هذا الفرق بين الديانتين وإلى المعركة النفسية التى يمكن أن تدور فى نفسية أحد الذين يشهدون هذا التطور.

وأهم ثورة للمسيحية على اليهودية هى أنها نقلت العبادة من المظاهر والمراسم إلى أعماق النفس، ومن عالم الحس إلى عالم الضمير، يقول المسيح " بماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه" لهذا كان من المنطقى أن تصطدم هذه التعاليم التى تعطى للفرد كيانه وحقه فى الوجود، بالتعاليم التى لا تعترف بقانون غير قانون الجماعة أو القبيلة، وكان طبيعيا أن يقع الصدام بين المسيح الذى يمثل الاهتمام بالفرد وبضمير الفرد حتى قيل إنه أبو الرومانسية، وبين اليهود الذين يؤمنون بديانة المجموع وديانة "شعب الله المختار".

---

(١) قرية ظالمة، ص ٧١ – ٧٢.

وليست الموعظة على الجبل، وهى التى عقد لها المؤلف فصلا كاملا بعنوان "عود إلى موعظة الجبل" ليست إلا نقلا للعبادة من المظاهر والحس إلى عالم الضمير، فقد جاء فيها "سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن، أما فأقول من نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه .. سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل أما أنا فأقول لكم لا تغضبوا ..." .

٤- والموعظة على الجبل تفضى بنا إلى دعوة السلام التى يدعو إليها المؤلف لا لأنه بصدد الكلام عن المسيحية فقط بل لأنه يؤمن بها فعلا موضحا أن الحرب لا تعود بالفائدة إلا على قلة معينة، فيقول إن الجندى الفاتح لا يتمتع بالسيادة إلا ساعة الفتح حين تعم الفوضى، ثم يعود إلى حاله الأولى فلا يسود أحدا ممن لم يكن يسودهم من قبل، ويصبح المجد مجد عشرة أو عشرين من أهل روما. وحد الاعتداء أن يوجد الجندى خارج حدود بلاده ليحارب قوما آمنين فى ديارهم..

ولا شك أن الكاتب يشير من خلال حديثه عما وقع يوم الجمعة منذ أكثر من ألفين من السنين إلى مشاكل الحرب والسلام التى يواجهها العالم اليوم، ويتخذ موقفه إلى جانب السلام فى وضوح. " وليست أحداث ذلك اليوم من أنباء القرون الأولى بل هى نكبات تجدد كل يوم، فى حياة كل فرد، فالناس أبداً معاصرون لذلك اليوم المشهود وهم أبداً

مـعـرضـــون لـمـا وقـع فـتـيـه أهـل أورشـليم حـينذاك من إثـم وضـلال" (١) .

٥- ومـرة أخـرى نجـده يشـير إلى مشـاكل اليوم من خـلال حديثه عمـا وقـع منذ ألفين من السنين، وذلك حين يتحدث عن فكرة فصل الدين عن الدولة، تلك الدعوة التى نادى بها المسيح حين قال " أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" ولو أن الدول المسيحية لم تعمل بتلك الدعوة فيما بعد - ونحن نجد المؤلف يتحمس بدوره إلى هذا الفصل بين الدين والدولة فيقول "إن الذين يدعـمـون النظام بالدين يخطئـون فى حق الدين . إن النظام من عـمل الإنسـان وهو ناقص وخـاضـع للتطور ولا يجوز ذلك على الدين"(٢) . "ومن حمل السلاح أو آذى الناس دفاعا عن الدين فقد وضع الدين فوق الله الذى يأمر بالحب لا بالقتل، والله كفيل بحفظ دينه وليس فى حاجة إلى عبيد خاطئين ينقذونه، وليس لأحد من العصمة ما يجعل رأيه فى زيغ العقيدة صوابا لا يأتيه الباطل إلى حد يسوغ فيه القتل. إن الذين يدافعون عن الدين بإيذاء الناس إنما يدافعون عن رأيهم وحدهم، بل أكثرهم يدافع عن حقوقه ومزاياه، ويتخذ الدفاع عن العقيدة عذرا يعتذر به" (٣) "ومن يعبد الدين نفسه

(١) قرية ظالمة، ص ٣.

(٢) قرية ظالمة،، ص ١٠٠.

(٣) قرية ظالمة، ص ٢٧٨.

عبادة تحمله على أن يتخطى حدود الضمير فيؤذى الناس فى سبيل حماية الدين يكون قد أشرك بالله" (١) .

★★★

ولا شك أن كتاب قرية ظالمة هو أقرب إلى العمل الفكرى منه إلى العمل الأدبى إذا كنا نحدد الإبداع الأدبى بالقصيدة والقصة والمسرحية، ولا شك أن ثقافتنا العربية فى حاجة إلى المفكر حاجتها إلى الأديب، وكتاب قرية ظالمة لون من ألوان هذه الكتب التى تثير مسائل فكرية لدى قرائها، ولم يكن ما أثاره لدىّ من مسائل الفكر المسيحى إلا أحد الجوانب الفكرية الكثيرة التى يمكن أن يثيرها مثل هذا الكتاب .

الآداب، بيروت، فبراير ١٩٥٨م

---

(١) قرية ظالمة، ص ٢٢٣.

الموسيقى الدينية عند الغربيين

نشأت الموسيقى أول ما نشأت كبقية الفنون الأخرى ، مرتبطة بالحياة الدينية. فقد كان الدين هو المجال الوحيد الروحى للإنسان البدائى إلى جانب ما يقوم به من عمل لحفظ ذاته (أى جلب الطعام والدفاع عن نفسه) ولحفظ نوعه (أى الأنسال). وكانت الحياة الدينية ذات معنى واسع جداً يشمل تفسير الوجود تفسيراً يقوم على وجود قوى لها السيطرة التامة على الإنسان ، فتسبب له الخير وتسبب له الشر ، وكان يسترضيها بإقامة المعابد والصلوات ، حيث نشأت فنون الرسم والمعمار والرقص والموسيقى. وكما نشأ الفن من المعبد كذلك نشأ العلم ، فالكاهن الذى كان يقوم بالتنجيم ليعرف الغيب والمستقبل قد خرج من صلبه الفلكى الذى يتنبأ بكسوف الشمس وخسوف القمر على أسس رياضية علمية، وكانت حفلات الأعياد والخروج إلى الحرب والانتصار والميلاد والزواج والوفاة كلها حفلات مصبوغة بصبغة دينية ، تحتل الموسيقى فيها دورها عن طريق الغناء والرقص .

ويبدو أنه لم تكن هناك موسيقى منفصلة عن الغناء أو عن الرقص فى ذلك العهد الأول ، فنحن نجد أن أرسطو فى كتابه "المشاكل" (الباب التاسع عشر الفقرة ٤٣) يقول : إن المزمار

خير من القيثارة ، لأنه أقرب إلى الصوت الإنساني ولهذا يمكنه أن يخفي خطأً قد يرتكبه المغني ، ويكرر في نفس الباب (الفقرة التاسعة) أنه لابد من وجود آلة واحدة ، لأن وجود "أكثر من مزمار أو أكثر من قيثارة يجعل الصوت غامضاً" وهذا دليل على انعدام الموسيقى بدون غناء .

أما العبريون فقد اهتموا بالموسيقى اهتماما عظيما فيذكر تاريخهم أن توبال قايين وهو من الجيل السادس لقايين بن آدم – كان ضاربا على كل آلة من نحاس وحديد (تكوين الإصحاح الرابع والعدد الثاني والعشرون). وعند خروج بني إسرائيل من أرض مصر تذكر التوراة أنهم رنموا للرب ، وأن مريم أخت هارون أخذت الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بالدفوف والرقص. وفي سفر القضاة أن دبوره وباراق ترنما عند انتصارهما على يابين ملك كنعان وقتلهما لسيسرا قائد جيشه. كما أن مرض شاول النفسي كانت حدته تخف بتأثير العود الذي يعزف عليه داود. وقد أنشأ داود فيما بعد مدرسة للغناء بها أربعة آلاف مسبّح. وكانت الآلات المستعملة هي الرباب والصنوج والأبواق بقيادة آساف. وكان عدد رجال هذا "الأوركسترا" يختلف تبعا للمناسبة ، ففي الأيام العادية يكون العدد ما بين عشرة إلى

عشرين ، وفى المناسبات الكبيرة قد يصل العدد إلى رقم ضخم. فيوم افتتاح هيكل سليمان كان عدد النافخين فى الأبواق مائة وعشرين. إلى جانب ذلك فإننا نعرف جميعاً أن المزامير ما هى إلا إنشاد داود إمام المغنين وغيره. وكانت بعض المزامير تُنشد بمصاحبة مجموعة من الآلات أو مع آلة واحدة. ويذكر لنا سفر دانيال آلات كان يستعملها البابليون عند دعوة الناس للعبادة منها القرن والناى والعود والرباب والسنطير والمزمار .

ولقد تأثر المسيحيون الأوائل بهذه الموسيقى العبرية ، فالرسول بولس مثلا حث المسيحيين فى أكثر من رسالة أن يستعملوا الأغانى والتراتيل ، ففى رسالة إلى أهل أفسس يقول "مكلمين بعضكم بعضا بمزامير وتسابيح وأغان روحية مترنمين ومرتلين فى قلوبكم".(أصحاح ٥ عدد ١٩) وعندما أصبح للخدمة طقوس خاصة ، أصبح الجزء الخاص بالموسيقى مقسما بين الكهنة والشعب ، ثم أخذ نصيب الشعب يتضاءل حتى إذا كان القرن الرابع الميلادى قرر مجمع لاودوكيه ألا يرتل فى الكنيسة إلا المرتلون المعينون الذين يعتلون المنبر ويقرأون. ويحدثنا القديس أوغسطين فى القرن الرابع الميلادى عن نوعين من الموسيقى الكنسيّة ، فهو

يقول إنها كانت فى الإسكندرية أقرب إلى الحديث منها إلى الغناء ، بينما يصف لنا ، فى إحدى فقراته الرائعة من اعترافاته ، النشوة التى أثملته فى ميلانو بإيطاليا وهو يستمع إلى جوقه القديس أمبروز .

ولابد أن نذكر هنا أن الموسيقى الدينية والرسم الدينى كانا المنفذين الوحيدين للطاقات الفنية فى العصور الوسطى المسيحية ، فقد كان تيار المحافظة والتشدد يمنع أى موسيقى إلا ما كان دينيا منها ، فوُضعت فى ذلك العهد البعيد كثير من التراتيل التى لا يزال بعضها يُستعمل فى الكنائس حتى اليوم .

وكان الترتيل فى أول الأمر بغير آلة موسيقية ، ثم أُدخل الأرغن فى القرن الخامس الميلادى ، ولم يكن دوره إلا مضاعفه الصوت الإنساني. وفى القرن الحادى عشر أُدخلت تحسينات عليه ، ومع ذلك كان لا يزال ناقصا من الناحية الفنية بحيث لا يُسمح بمجال كبير للعازف .

فى هذه الأثناء حدث التحول الخطير الحقيقى فى تاريخ الموسيقى الغربية. فالمعروف فى كل الشعوب أن المغنيين إذا أنشدوا اللحن سويا فإن صوت الأطفال والنساء يرتفع بطبيعته عن صوت الرجال بمقدار ثمانى نغمات أو ما يُعرف

باسم الأوكتاف (الجواب) لكنهم ينشدون فى صوت واحد نفس النغم ، الرجال فى الطبقة المنخفضة والنساء فى الطبقة العالية ، والظاهرة العجيبة في الموسيقى الغربية أن قوة الابتكار والاختراع وتكييف الأصوات تطورت حتى بلغت بالموسيقيين أن يؤلفوا اللحن والمنشدين أن يغنوه من نغمات مختلفة وإيقاعات متقابلة فى نفس الوقت. فيغنى الواحد لحنا يذهب صعدا ويغنى زميله لحنا مقابلا ينزل به خفضا. وهكذا يتوالى اللحنان فى حركات مضادة حتى يلتقيا فى النهاية أو فى الختام عند نغمة واحدة ، وبذلك انتقلت الموسيقى الغربية نهائيا من اللحن المفرد إلى اللحن المركب .

فى هذه الأثناء نشأت قوالب موسيقية أهمها :

المادريجال : وهو قالب موسيقى كان يصاحب الغناء باللغة الوطنية فى مقابل الموسيقى التى كانت تصاحب الغناء اللاتينى ، وقد نشأ هذا القالب أثناء بروز اللغات القومية قبيل عصر النهضة ، ومعنى المادريجال باختصار ، أغنية تنقسم إلى قسمين : الأول يحتوى على عدة فقرات ، والثانى يضم المجموعة الأولى بأسلوب مختلف. وبتقدم كتابة المادريجال تطور حتى اتسعت حدوده ولم يعد خاضعا لتحديد واضح. كل ما نستطيع أن نقوله إنه كان أغنية دينية باللغة القومية

موضوعة لثلاثة أو أكثر .

ثانياً : الموتيب : وهو ضرب من الألحان الدينية الشعبية التى تدخل فى الطقوس الدينية لكنها تُنشد داخل الكنيسة أو خارجها. وكانت فى أول الأمر تُكتب لصوت واحد يمكن أن تكون دينية أو دنيوية ، ولكن كاريسيمى Carissimi لاءم بينها وبين مطالب الكنيسة. وقد تحول الموتيب فيما بعد إلى رواية دينية تسرد حكايات القديسين والشهداء أو قصصا من الإنجيل تُمثَّل فى باحة الكنيسة وتُعرف باسم الأوراتوريو .

وبين الموتيب والأوراتوريو ظهر القالب المعروف باسم Pas-sion وكان يعبِّر فيه بالموسيقى ، وبدون كلام وبمقدرة درامية هائلة ، عن الأيام الأخيرة التى عاشها المسيح على الأرض. بينما تطور المادريجال إلى قصص دنيوية تمثَّل على خشبة المسرح عُرفت فيما بعد باسم الأوبرا .

إلى جانب ذلك كانت هناك الأناشيد الدينية المعروفة باسم "كانتاتا" أى مقطوعة للأصوات ، فى مقابل "سوناري" أى مقطوعة للآلات. ومن أمثال الأخيرة "المتتالية" Suite وهى مجموعة من الرقصات المتعاقبة تتداول السرعة والبطء . وتنتقل من إيقاع إلى إيقاع تبعا لمصادر الرقصات مع العناية بالتعبير عن شتى المشاعر .

ومع ذلك فقد كانت الموسيقى حتى بداية القرن الخامس عشر تكاد تقوم على أسس رياضية بحتة بغير الاعتناء بالناحية الجمالية ، مثال ذلك أن يكون هناك اثنان من المغنين أحدهما يبدأ صعدا والآخر يبدأ من طرفها الآخر خفضا ، حتى ينتهى كل منهما إلى عكس ما بدأ به الآخر أى حتى يتقابلا فى منتصف النغمة. ولا نقول إن كل الموسيقى فى العصور الوسطى كانت على هذا النحو لكن أغلب الموسيقى التى كانوا يمارسونها أثناء الخدمة الدينية بالكنيسة الكاثوليكية - وأُطلق عليها اسم القداس نسبة إلى تلك الخدمة الدينية - كانت من هذا النوع. وأحيانا ما كانت تُقحم بين كلمات القداس كلمات لا علاقة لها بالنص الأصلى ، فيكون هناك صوت مهمته أن يغنى كلمة "هللويا" أو" السلام لك يا مريم" ، بينما يغنى الآخرون أجزاء القداس. ولم تكن هذه الموسيقى جزءا ضرورياً من القداس فالكاهن قد يقوم به بغير الاستعانة بالموسيقى ، ولم تكن الجوفة تُعتبر إلا وسيلة تساعد على جلال الموقف .

بالسترينا : وقلما كان موسيقار العصور الوسطى يؤلف موسيقاه على الموضوع الدينى ، فقد كانت خطته المحببة ، هي أن يقتطع من لحن مفرد بسيط (ميلودي) معروف ،

ويجعل ما يقتطعه موضوعه الرئيسى ، لكنه قلما يشير إلى كلمات الملحن بل كان الموسيقار يخلق الانسجام بين الملحن وكلمات القداس. فما الذى أغرى الموسيقيين بذلك؟ الواقع أن شعراء التروبادور فى العصور الوسطى قاموا بإنتاج وفير من الأغانى الدنيوية ، لا يزال بعضها منتشرا فى أوروبا تحت اسم "الأغانى الوطنية" ولو أن أسماء مؤلفيها قد عفى عليها النسيان ، وقد أغرى جمال هذه الألحان المفردة البسيطة الموسيقيين باختيارها لإدخالها فى موسيقى القداس، وقد سُميت كثير من هذه المؤلفات الموسيقية بأسماء الأغانى التى أُخذت منها مثل "الرجل المسلح "L homme arme" وهو مثال شائع فى كل كتب الموسيقى عند تعرضها لهذا الموضوع. وكما أن صوت الموسيقى الدينية يذّكرنا بما يحويه من كلمات، كذلك فإن صوت الموسيقى الدنيوية سرعان ما يذّكرنا بما يحويه. لهذا كلما كانت الموسيقى الدنيوية أجمل كان تأثيرها "السيىء" أكيدا. رغم أن جمالها وحده هو الذى جذب نحوه الموسيقار ورغم أن الطريقة التى بها يتناول هذه الموسيقى تثبت أنه لم ينو أية نية شريرة. وقد حدثت النتيجة المتوقعة فإن إدخال موسيقى هذه الألحان قد جلب معه نتائجه. حقا لم يحدث هذا مرة واحدة ، بل استغرق وقتا لكنه حدث فى

النهاية ، فكانت الكلمات الأصلية الشائعة تُنشد مع الكلمات الدينية ، ولم يكن ذلك بطبيعة الحال من عمل الموسيقار الذى ما كان ليجرؤ على ذلك حتى ولو أراده ، بل كان ذلك من عمل بعض المنشدين الذين كانوا ينشدون هذه الكلمات ، بينما الجزء الأعظم من الجوقة يلتزم النص الديني، وهكذا تطلَّب الأمر إصلاحا، واجتمع اثنان من الكرادلة ، لبحث أمر هذا الإصلاح ، وأجلا اتخاذ قرارهما النهائى حتى يمكنًا باليسترينا (١٥٢٥ – ١٥٩٤) – وكان يُعتبر أعظم موسيقار فى عصره – من إخراج قداس لا يتخلص فحسب من هذه الشوائب التى ارتفعت الشكاوى من وجودها ، بل من تأليف قداس يحمل عناصر العقيدة الدينية القوية ويكون أنموذجاً للموسيقيين لما يجب أن تكون عليه الموسيقى الكنسيّة الحقة. وكان ذلك يتطلب إنسانا مؤمنا ، وموسيقيا بارعا ، وفنانا يكون لديه الإحساس بالجمال من القوة بحيث يجعله لا يتغاضى عن الناحية الفنية فى سبيل تحقيق غرض ما. وكانت قد سبقته محاولات فى هذا السبيل ، لكن كان على بالسترينا أن يقوم بالمهمة الكبرى ، فعلَّم العالم أن الموسيقى ليست مجرد تجميع نغمات لا حياة فيها. وكما أن موهبة الخطابة تمكِّن الإنسان من التعبير عن آرائه ومشاعره ، فإن تآلف

النغمات يمكّنه من التعبير كذلك عن مشاعره سواء أكانت مشاعر التقديس أم المديح أم الصلاة. كذلك كان بالسترينا مدينا لمَجمَع يترنك بإتاحة الفرصة له ليبين كيف يمكن إخراج عمل عظيم فى هذا السبيل ، وكيف تكون الوسائل المؤدية إلى ذلك من الجمال بحيث يمكن الإحساس بأثرها حتى يومنا هذا .وقد قدّم - على سبيل التجربة - ثلاثة قداسات للكردينال كارلو بروميو ، وتمت هذه التجربة فى قصر الكاردينال فينيلوزي، ورغم أن الجميع أعجبوا بكل ما قدمه إلا أن الحكام أجمعوا على أن القداس الثالث قد حقق كل الشروط المطلوبة بدرجة لا مثيل لها. وكان ذلك فى يونيه عام ١٥٦٥ . وفى التاسع عشر من ذلك الشهر أُنشد القداس علنا بحضور البابا بيوس الرابع (١٥٥٩ - ١٥٦٥) الذى شبه هذه الموسيقى بالصوت الذى سمعه القديس يوحنا فى رؤياه لأورشليم الجديدة ، وبذلك فاز هذا القداس باعتباره المثل الأعلى للموسيقى الكنسيّة. وقد طُبع هذا القداس فيما بعد وأهداه باليسترينا لفيليب الثانى (١٥٢٧ - ١٥٩٨) ملك أسبانيا بعنوان "قداس البابا مارسليللوس" حتى ظن البعض أن الذى ألفه هو البابا مارسيللوس الأول الذى استُشهد فى القرن الرابع ، وأن باليسترينا ما هو إلا مكتشفه. ومن

البديهى أن تأليف مثل هذه الموسيقى فى القرن الرابع كان أمرا مستحيلا ، والواقع أن هذا القداس هو أعظم أعمال باليسترينا بل يقال إنه أجمل وأروع عمل وُضع لخدمة الكنيسة .

فى هذه الأثناء – وفى نفس هذا القرن – نشأت الكنيسة اللوثرية واهتمت بالأناشيد الدينية والموسيقى وأشركت الشعب فيها مرة أخرى كما كان الأمر فى الكَنيسة الأولى ، بعد أن كانت الكنيسة الكاثوليكية قد قصرتها – كما رأينا – على القائمين بإنشاد القداس. حتى إذا ما جاء القرن الثامن عشر كانت الموسيقى الكنسية قد وصلت إلى القمة على يد يوحنا سباستيان باخ وعلى يد جورج فردريك هاندل .

يوحنا سباستيان باخ :

كان باخ من أسرة موسيقية أبناء عن آباء .. بدأ جدهم الأكبر فيت باخ كهاو للموسيقى إلا أنهم سرعان ما احترفوها، حتى أنه بعد ارتحال أسرة باخ من قريتها "إيرفورت" ظل الناس يطلقون اسم باخ على كل موسيقيٍّ هناك. وكان آل باخ يجتمعون سنويا فى العادة ، ويبدأ اجتماعهم بالترتيل والصلاة ، ثم ينتقلون إلى الأغانى المرحة وهو يلعبون ويغنون طوال النهار. وكانوا يكّونون جوقة تنشد

الأغانى المعروفة وهم يموّجون النغم معا بغض النظر عن تفاهة الكلام. وكان المتفرجون يضحكون لذلك ، فهذه الحفلات قلما خلت من متفرجين ، ورغم شهرة آل باخ فى الموسيقى من أوائل القرن الخامس عشر ، إلا أن اسم يوجنا سباستيان باخ هو الذى حفظ لنا اسم أسرته بحيث إذا ذكرت اليوم اسم باخ فإنما تعنيه هو دون سواء .

وكان والده يشغل منصب موسيقىّ بلدة إيرفوت ، حيث وُلد باخ وحيث كانت قلب ألمانيا من النواحى الجغرافية والرومانتية والدينية ، وقريب منها كان يعلو حصن وارتبورج المزدحم بالذكريات عن مارتن لوثر زعيم حركة الإصلاح الديني في ألمانيا. ولا شك أن باخ الصغير قد تسلل يوما إلى الحصن ، حيث شاهد الفرسان يتجمعون من قريب ومن بعيد، ليرتلوا أغنية الحب ، واستطاع أن يتسلل إلى غرف كانت يوما ما مهد حركة الإصلاح ورأى نفس المنضدة التى ترجم عليها لوثر كتابه المقدس إلى اللغة الألمانية.

وكان دوق المدينة يسكن فى قصر مواجه للسوق ، ويحتفظ بفرقة موسيقية بقيادة والد سباستيان باخ. وكانت كنيسة القديس جورج – وهى كنيسة البلدة – لها أرغن ممتاز ، وكان كريستوف باخ ابن عم والد باخ هو عازف الأرغن وقائد

الجوقة فى تلك الكنيسة. وقد ذهب سباستيان إلى المدرسة فى صغره ، ليتصارع مع اللاتينية ويتعلم مبادئ القراءة والحساب ودروس الإنجيل والرسل. ولما كان هو أحد أفراد آل باخ ، فقد كان يخصص كل وقت فراغه للموسيقى وكان هو نفسه أكثر تلامذة والده تحمسا للفيولين والفيولا ، كما كان يقضي شطرا كبيرا مع كريستوف عازف الأرغن بالكنيسة. وكانت المدرسة التى يتردد عليها سباستيان هى التى تعد الجوقة للكنيسة وتمدها بها ، فكان سباستيان الصغير يرتل نفس التراتيل ويجلس على نفس المقاعد التى حوت مارتن لوثر يوما ما .

وفى عمر التاسعة ماتت والدة سباستيان ، وبعدها بثمانية أشهر مات والده كذلك. فأرسل سباستيان إلي أخيه الأكبر يوحنا كرستوف الذي كان متزوجا ويعمل عازفا علي الأرغن فى مدينة أوردروف وهى تبعد ثلاثين ميلا ، وليست لها أهمية معينة ، فقد أحاطت بها الحقول وعزلتها عن بقية المدن. ومع ذلك فقد لعبت هذه المدينة دورا هاما فى حياة باخ وفي حياة الموسيقى ، لأن باخ اكتسب فى هذه المدينة مرانه على الآلات ذات المفاتيح التي مهدت له أن يخدم فى الكنيسة ، ولو أنه بقي فى مدينته لظل بلا شك مرتبطا بالآلات الوترية ولأصبح

عازف البلدة شأنه فى ذلك شأن والده.

ولم يكن أخوه الأكبر كريستوف مجرد عازف على الأرغن، بل كان موسيقيا بارعا ومدرسا ماهرا ، فسرعان ما أخذ يدرب أخاه الذى كان يطالب دائما بتمارين أصعب. وذات يوم رأى باخ مجموعة موسيقية أراد أن يقرأها لكن أخاه نهاه عن ذلك ، فما كان منه إلا أن جعل يسرقها ليلا ، لينسخها ثم يعيدها فى الصباح إلى مكانها فلا يكتشف أحد ما فعل ، ولما لم يكن يستطيع أن يستخدم شمعة لئلا يُكتشف أمره فقد كان لا ينسخ إلا فى الليالى المقمرة ، لكن هذا الإجهاد أثر فى عينيه مما جعله يصاب بالعمى فيما بعد ، فقد ظل يقوم بعملية النسخ ستة أشهر ، وما أن أتم عمله وبدأ يعزف هذه القطع حتى أدرك أخوه بالطبع ما فعله الصبى ، فما كان منه إلا أن مزق كل ما نسخه باخ وأجهد نفسه فيه .

ومن حسن حظ سباستيان أن دوق أوردروف كان معنيا بنظم الإصلاح التعليمي ، فأمر الدوق ببناء مدرسة نموذجية يتعلم فيها الأولاد والبنات اللغتين الإغريقية واللاتينية والكتاب المقدس وشيئاً عن العالم الذى يعيشون فيه. فأُعدت الكتب فى الجغرافيا والعلوم الطبيعية ، وكانوا يهتمون بالدراسات التجريبية ، ويجلب الدوق إليها مدرسين متمرنين متخصصين

فى مـهنتـهم. وكـان ذلك مـختلفـا عـمـا يحـدث فـى المدارس الأخرى، حتى أن أولياء الأمور أرسلوا إليها أبناءهم من مدن بعيدة حتى من بلدة إيرفورت نفسها موطن باخ الأصلى ، وقد تجاوب سباستيان بسرعة مع هذا المنهج المرتفع المستوى حتى أنه أتم دراسته مبكرا عامين عن السن المألوفة لزملائه عند تخرجهم .

وحين بلغ الخامسة عشرة كان عليه أن يكسب عيشه بعرق جبينه ، فرشحه أحد مدرسيه ليعمل فرداً فى جوقة كنيسة مدينة Mschacliskirche وبذلك يستطيع كسب عيشه كما يستطيع مواصلة تمرينه فى جو هادئ بعيداً عن بيت أخيه الذى أخذ يزدحم بالأطفال الصغار. وكانت توجد فى مكتبة المدينة مجموعة موسيقية تعدّ من أنفس مجموعات ذلك الوقت، فأخذ يطالعها ويعزفها حتى أن المشرفين على المكتبة أعطوه امتيازات خاصة فيها. لكن صوت سباستيان ما لبث أن تغير بعد عام واحد ولم يعد صالحا للجوقة ، إلا أن مرانه على الفيولين والفيولا ساعده على بقائه كعازف على الآلات .

فى هذه الأثناء كان باخ يذهب إلى هامبورج لسماع عازف الأرغن الشهير رينكين فى كاتدرائية القديسة كاترين ، وهى تبعد عن مدينته ثلاثين ميلا ، كان يقطعها مشيا على

قدميه جيئة وذهابا بحيث كانت تستغرق منه هذه الرحلة يوما كاملا. وعلى بعد ستين ميلاً من جنوب لوينبرج كانت تقع مدينة Celle، حيث كان الدوق جورج وليم وزوجته الفرنسية التى جلبت معها فرقة من فرنسا ، فكان باخ يذهب إلى هناك من حين لآخر للاستماع إلى هذه الموسيقى ، وكان أثناء ذلك يحلم بأن يكون عازف أرغن ، فما أن سمع أن كاتدرائية القديس بونيفاس بمدينة إرنشتاد تحتاج إلى عازف حتى أسرع إليها ، وهناك وجد أن الأرغن يحتاج إلى أشهر لإتمامه ، فمكث هذه المدة عازفا لدى حاكم المنطقة ، وحين تم إعداد الأرغن دخل المسابقة ، ورغم أنه كان لا يزال فى الثامنة عشره من عمره إلا أنه فاز فى تلك المسابقة وعُهد إليه بالأرغن. وقد سعد بهذه الوظيفة أيما سعادة ، لكن أطفال الجوقة الأشقياء كانوا ينغصون عليه هذه السعادة .

فى أثناء ذلك كان يذهب إلى مدينة "بوكستهور" فى مقاطعة "لوبيك" حيث كان بالفرقة أربعون عازفا وجوقة حسنة التمرين مما أثمل باخ وجعله يدرك عظمة الموسيقى وتأثيرها. ثم انتقل إلى مدينة "موهلهاوزن" كعازف على الأرغن فى كنيسة القديس بليز ، حيث كان المرتب أفضل ، كما توفى عمه طوبيا فورث مبلغا من المال جعله يفكر فى الزواج من محبوبته

ماريا بربارا. ولقد حدث نزاع بين كنيستيْ "المدينة ورغم أن كلتيهما كانت كنيسة بروتستنتيه إلا أن إحداهما - وهى التى ينتمى إليها باخ - كانت أكثر محافظة وتشددا حتى أن باخ خشى - رغم عطفه على قسيس كنيسته - من أن يؤدى هذا التشدد إلى التحكم فى الموسيقى حتى خارج الكنيسة. فما أن جاءته الدعوة من مدينة "فايْمر" حتى رحل إليها .

وكان دوق فايمر رجلا وسطا بين الشدة والتساهل. وقد تقلد باخ وظيفة عازف الأرغن فى كنيسة الدوقية كما كان قائد الأوركسترا هناك ، وسرعان ما ذاعت شهرة باخ حتى أن زوجته ماريا بربارا وجدت نفسها لا تُعنى بأطفالها فحسب بل وبتلاميذ زوجها الذين يتكاثرون ، وفى أثناء ذلك جاءته دعوات كثيرة للعمل فاستقال من عمله ، فما كان من الدوق إلا أن قبض عليه فى السادس من نوفمبر سنة ١٧١٧م. لكنه عاد فأطلق سراحه فى الثانى من ديسمبر من العام نفسه فذهب إلى مدينة "جوتين" Gothen، حيث أمضى خمس سنوات وهناك ماتت زوجته أثناء إحدى رحلاته مع أمير المقاطعة إلى "كارلسباد". وقد صُدم باخ فى أول الأمر لكنه سرعان ما تقابل مع "أنا ماجدالينا" ذات الصوت الجميل ، وكانت فى العشرين من عمرها وكان هو فى الأربعين ، لكن

حبهما لم يأبه لهذا الفارق فى العمر وتم الزواج بعد علاقة عاطفية قصيرة .

وبعد ذلك بأيام شعر باخ أن هذا المكان لا يصلح له ، وسرعان ما رحل إلى "لايبتزج" ، حيث شغل وظيفته المألوفة ، وكانت مدينة رائعة تضاء شوارعها ليلا بسبعمائة مصباح زيتى ويتجول فيها الحراس حاملين أسلحتهم ينادون معلنين الوقت من حين لآخر ويحرسون النيام من أخطار الظلمة. وفى الناحية الشرقية من المدينة كانت تنتشر أبنية الجامعة. وفى الناحية الغربية كانت تقوم الكنيسة القديمة ومدرسة القديس توما. وهناك أقام باخ مع أطفاله العشرين ، سبعة من زوجه الأولى ماريا بربارا وثلاثة عشر من زوجه الثانية أنا ماجدالينا ، وقد مات أكثرهم فى طفولتهم لكن ما تبقى كان عددا كافيا ليزدحم بهم المنزل ، وكان مرتبه ضئيلا رغم ما يحصل عليه من أجور إضافية فى الأفراح والمآتم ، لكن باخ كتب فى خطاب لأحد أصدقائه يقول إن مدينة لايبتزج مدينة صحية تقل فيها الوفيات وبالتالى تقل فيها المآتم. ورغم ذلك فقد ظل باخ وزوجته يعيشان فى هذا المكان ربع قرن من الزمان ، يعلّم أولاده الموسيقى ، وهو المسئول عن الموسيقى فى كنائس المدينة الأربع رغم أنه لا يُعرف شخصياً إلا فى

الكنيستين الرئيستين منها، وهما كنيسة القديس نيقولا وكنيسة القديس توما. ولم تكن الموسيقى فى الكنائس اللوثرية شيئاً عرضياً ، بل كانت جزءا أساسيا من الخدمة الدينية التى كانت تستغرق خمس ساعات من السابعة صباحاً حتى الظهيرة. وكان عليه - وهو فى سن الخامسة والعشرين - أن يدرب جوقات تضم أولاداً غير مدربين ، أعمارهم تتراوح ما بين التاسعة والحادية والعشرين. وقد كتب مرة تقريرا عن تلاميذه فقال "سبعة عشر منهم صالحون ، وعشرون لم يصلحوا بعد ، وسبعة عشر لا فائدة منهم" . ثم كانت هناك مشاكل العازفين أنفسهم ، حتى أن باخ صاح مرة فى عازف الأرغن "كان أجدى عليك أن تكون إسكافيا" كما كان عليه أن يؤلف الموسيقى وينسخها لأفراد الجوقة ، ويبدو أنه كتب على الأقل ٢٥٦ نشيداً فى مدينة لايبتزج من مجموعة الأناشيد التى كتبها فى حياته وتبلغ ٢٩٤ نشيداً. ولم يكن عليه أن يؤلف أناشيد دينية فحسب بل وأن يؤلف موسيقى ليوم الجمعة الحزينة ، مما جعله يبدع لنا" آلام المسيح حسب القديس متى" "وآلام المسيح حسب القديس يوحنا" كما يؤلف الموسيقى للأفراح والمآتم والحفلات الدينية.

لقد كان باخ يحب إلهه وموسيقاه وبيته وقد شعر بعزة

النفس حين رأى ابنه ولهلم فريدمان يحتل مكانه كعازف أرغن في كنائس "درسدن الكبرى ، وابنه كارل يذهب إلى بوتسدام كقائد موسيقى بلاط فردريك الأكبر ، وشعر بنشوة عظمى عندما استطاع أن يضيف في عام ١٧٣٦ إلى لقبه كلمات "عازف جلالة ملك بولندا وأمير سكسونيا" وذلك إلى لقبه الأول "منشد الموسيقى وقائدها بكنيسة القديس توما". ولم يكن يهمه كثيراً أن تذاع أعماله بين الناس أو خارج الكنيسة، فقد كان يقول : "يجب أن يكون الغرض الرئيسي لأية موسيقى هو تمجيد الله والخليقة" لذلك ما كان يأبه لتصفيق الجماهير ، لكن رغم أنه لم يخرج عن نطاق وطنه فإنه لم يكن ضيق الأفق ، فمنذ أن اختلس سباستيان الصغير كتب الموسيقى التي حرمها عليه أخوه الأكبر ، منذ ذلك الوقت استطاع سباستيان أن يرحل بعقله إلى الموسيقى التي لا تعرف حدودا. وقد كان الكثيرون يبعثون إلى باخ لاستشارته في أمر أرغن هنا أو أرغن هناك ، وكان يمكنه أن يسافر إلى الخارج كما فعل زميله هاندل. ومن الغريب أن هذين الموسيقيين الألمانيين المولودين في نفس العام وعلى مقربة من بعضهما لم يتح لهما أن يتقابلا إطلاقا. ولقد قام باخ بكل المحاولات لمقابلة هاندل ، فقد كان يدرّس موسيقاه ويجلها

بينما لم يكن لهاندل أى اهتمام بمدرس الموسيقى فى لايبتزج.

وفى أخريات أيامه قام برحلة إلى برلين ليزور ابنه كارل فيليب. وعندما سمع فريدريك الأكبر بوصوله أسرع باخ إلى صالة الموسيقى الفخمة قبل أن يغير شيئاً من ملابسه المعفرة بغبار السفر أو يرتدى عباءته الرسمية السوداء ، وسرعان ما تردد فى القاعة عزف باخ مما جعل فريدريك الأكبر يصيح "هناك باخ واحد" وكان هذا انتصارا له لكنه انتصار عرضي، لأن باخ لم يذهب إلى برلين ليُدخل السرور على قلب أحد الملوك ، بل لمجرد التمتع برؤية أول حفيد له.

وبعد سبعة وعشرين عاما من العمل فى لايبتزج بدأت صحته تتدهور وبصره يضعف ، وفى عام ١٧٥٠ مر طبيب عيون إنجليزى بالمدينة ، فنصحه أصدقاؤه بأن يغتنم هذه الفرصة الذهبية ، وإن الواحد منا ليقشعر حين يفكر فيما حدث بتلك الغرفة التى طالما صدحت بموسيقى باخ ، حين يفكر فى هاتين العمليتين : الواحدة تلو الأخرى ، حين يفكر فى اللحظة التى ارتفعت فيها الضمادات عن عينيه لتكشف عن رجل لا يرى شيئاً: لقد واجه باخ مصيره بشجاعة ، فقد كان يدرك ما تبقى له من أيام. وقبل وفاته بقليل رُد إليه

بصره إلى حين ، ثم فقد وعيه ، وفى السادسة صباحاً قبل أن تبدأ الخدمة الدينية اليومية ، كان يسير خلف نعش باخ موكب حزين من أصدقائه وتلاميذه حتى ساحة كنيسة القديس يوحنا : وهناك دُفن فى قبر سرعان ما عفت آثاره ، وبعده بعشر سنوات ماتت زوجته أنا ماجدالينا. ولم تعرف لايبتزج عظمة موسيقارها وقيمته حتى ليقال إنه حين كان يحتاج أحدهم إلى قطعة من الورق ليلف بها حاجته كان يذهب إلى دولاب بالدور الأرضى ويقتطع ورقة من الكتب الموسيقية القديمة المخزنة هناك ، ولم تكن هذه الكتب القديمة إلا مخطوطات باخ التى لا تُقدر بثمن. وبعد ذلك بقرن بُعث باخ من جديد ، ليس باخ عازف الأرغن ، بل باخ المؤلف الموسيقى الذى يدهش العالم بموسيقاه. ومع ذلك فإن عبقريته لم تتكشف بكاملها للناس حتى كان جيل مندلسون (١٨٠٩ - ١٨٤٧) وشوبان (١٨١٠ - ١٨٤٩) اللذين أذاعاه فى عالم الموسيقى فوُضع فى مكانه اللائق .

لقد كان القالب الذى صاغ فيه باخ موسيقاه هو "الفوجة" التى هى بناء موسيقى مُنشأ على لحن واحد قصير ، يصور ويحور فى مقابلة لحن آخر هو بمثابة الرد عليه ، يتنقل اللحن بين الأصوات المختلفة ، متقدما هنا متأخرا هناك ، "كالمرء

وظله" فهو أشبه بحوار بين الصوت وأصدائه حتى تقترب الخاتمة فيتقارب اللحن وظلاله حتى تنتهى الفوجة باللحن الواحد معزوفا على أبعاد هارمونية. ولقد عبَّر لنا جيته عن أثر موسيقى باخ فى نفسه فقال : "لكأننى أرى عُمُداً ضاربة فى الارتفاع ودرجا فسيحا من المرمر ينحدر عليه فى وقار حشد من الرجال العظام".

جورج فريدريك هاندل :

ولد جورج فريدريك هاندل فى مدينة هال فى الثالث والعشرين من فبراير عام ١٦٨٥ ، وكان أبوه يعمل فى وظيفة تشبه حلاق الصحة فى أيامنا ، لا يميل إلى الموسيقى ، ويحلم بأن يكون ابنه محاميا. وقبل أن يبلغ جورج الثامنة ، ذهب أبوه ليزور ابنا له من زوجة سابقة ، وكان هذا الابن يعمل فى بلاط أحد النبلاء فطلب منه هاندل الصغير أن يصحبه لكن رجاءه ذهب عبثا ، فما كان منه إلا أن جرى خلف العربة على قدميه حتى اضطر أبوه إلى اصطحابه. وهناك تعرف على موسيقيى البلاط وسمحوا له بأن يتدرب على أرغنه ، فما أن سمعه الدوق حتى تنبه إلى موهبته ، وتحادث بشأنه مع والده الذى استمع إلى رغبات النبيل. وحين عاد هاندل تتلمذ على يدىْ سازاشو عازف الأرغن

بكاتدرائية المدينة الذي مرنه لكي يصبح بدوره عازفا على آلات مختلفة حتي أنه ابتدأ يؤلف قطعا موسيقية في عمر العاشرة, فلما بلغ الثانية عشر كان قد تلقن كل شيء من أستاذه فغادر إلي برلين ، حيث جذب أنظار البلاط ، ثم عاد إلي هال مرة أخري واستمر في عمله مع سازاشو ، وفي عام ١٦٩٧م – أي وهو في الثانية عشرة من عمره– مات والده لكنه استمر في دراسته حتى أنه دخل الجامعة عام ١٧٠٢م لكنه نجح في نفس هذا العام في الحصول علي وظيفة عازف أرغن بالكاتدرائية .

وبعد ذلك بسنة واحدة ذهب إلي هامبورج ، حيث كانت الأوبرا الألمانية الوحيدة الناجحة يقودها رينولد كايزر ، وهناك صاحب ماثيسون وهو موسيقار موهوب وذهبا معا إلي مدينة بوكستيهود ، ليعزفا علي أرغنها لكنهما لم يتنافسا علي العمل ، لأنه قيل لهما إن أفضلهما سيتزوج البنت الكبرى لعازف الأرغن المتقاعد – اللذان حلا محله – ويبدو أنها لم تكن على شيء من الملاحة. ولقد تبارزا مرة واحدة في هامبورج وذلك عندما قدم ماثيسون أوبرا كليوباتره وترك قيادة الأوركسترا لهاندل حتى يقف على المسرح ويغني دور أنطونيو ولما عاد رفض هاندل أن يتنازل له عن قيادة

الأوركسترا ، ولو مات هاندل فى هذه المبارزة لما أخرج لنا "المسيا" ولا موسيقى "إسرائيل فى مصر" لكن المبارزة انتهت بقطع زرار فى جاكتة هاندل ثم عاد الاثنان صديقين ، وفى كتابات ماثيسون نجد إشارات ذات أهمية بالغة فى تاريخ هاندل .

وابتدأ هاندل بعد ذلك يؤلف ، ثم انتقل من هامبورج بألمانيا إلى إيطاليا. وكان قد رفض من قبل عروضا عليه للذهاب إليها ، أما الآن فهو يذهب إلى إيطاليا على نفقته الخاصة سيد نفسه ، وكان يتنقل بين فلورنس وروما ونابولى وفينيسيا. وبدأت شهرة هاندل تتسع. وفى عام ١٧١٠ وصل إلى لندن ، وصلها كعازف للأوبرا الإيطالية ، وفى عام ١٧١٤ تولى الحكم الملك جورج الأول فألف له هاندل قطعته الموسيقية الشهيرة "موسيقى المياه" عُرضت بالمياه الملكية بنهر التايمز أمام الملك الذى سُر منها حتى أنه أثنى على الموسيقار وخصص له راتبا يبلغ أربعمائة جنيه سنويا. وأصبح هاندل فيما بعد مدرس الموسيقى للأميرات ، وخصصت له الأميرة كارولينا مائتين من الجنيهات علاوة على مرتبه .

وقد تنقل بعد ذلك بين عدة بلاد كان فى كل منها يؤلف ويعزف. لكن فى عام ١٧٣٧ كان قد تكاثر منافسوه وحساده

حتى أصيب بفلس وشلل نتيجة القلق والعمل المتزايد المرهق.
والواقع أن هاندل لم يكن يعمل لعبقريته إنما لإرضاء الجمهور ، فالجمهور يطلب الأوبرات وهو يستطيع أن يؤلف من الأوبرات ما يؤلفه ثلاثة موسيقيين مجتمعين. لكن الأوبرات لم تكن مجاله الحقيقى الذى فيه تتفتح عبقريته. حتى أنه كثيراً ما كان يمسك مغنية الأوبرا كازونى Cazzoni من ذراعها ويهددها بإلقائها من النافذة إن لم تغنى لحنا تراه لا يتفق وطريقتها. لكن عبقريته الحقيقية كانت تتفتح فى الأوراتوريو.

وفى عام ١٧٢٦ تجنس هاندل بالجنسية الإنجليزية. ومن عام ١٧٣٣ بدأ هاندل حياته العامة كموسيقار الشعب الإنكليزى بأن قدم قطعته "الفصح" على مسرح الملك ، ثم تلا ذلك قطعته "دبورة" إحدى القائدات الإسرائيليات ورد اسمها فى سفر القصاه من التوراه ، حيث كان دور الجوقة أكبر ، وزاد نصيب الجوقة فى قطعته "شاول" (أول ملوك إسرائيل) عام ١٧٣٨ أما قطعته "إسرائيل فى مصر" التى ألفها فى نفس العام فقد كانت تغنيها الجوقة من أولها إلى آخرها. أما "المسيا" فقد قُدمت فى مدينة دبلن فى الثالث عشر من أبريل عام ١٧٤٢ ، ثم ألف بعدها "شمشون" ثم "بلشاطر" ثم "يهوذا المؤابى "ثم "يهوشع وسليمان وابنيْ يفتاح" وغير ذلك من

القطع الدينية المستوحاة من التوراة. وكانت العداوة لهاندل في ذلك الوقت قد ماتت ولو أن متاعبه كانت كثيرة فأفلس ، إلا أنه ما لبث أن ضغط على نفسه فى العمل حتى سدد ديونه بل اكتسب مبلغا من الضخامة بحيث سمح له بإهداء أرغن لمستشفى مدينة فوندلنج Foundling وأقام لذلك حفلة فى الخامس عشر من مايو عام ١٧٥٠ عزف فيها جزءا من المَسيا.

وفى عام ١٧٥١ بدأ نظره يضعف ، فأُجريت له عدة عمليات جراحية قام بأحداها نفس الجراح الذى قام بعمل عملية لباخ ، وقد فقد هو أيضاً بصره عام ١٧٥٢ م ومع ذلك استمر فى عمله وقام بعزف المسيا قبل وفاته بأسبوع واحد. وبينما دُفن باخ فى مقبرة سرعان ما نُسيت ، نجد أن هاندل دفن فى مقبرة للعظماء بوستمنستر بانكلترا .

والواقع أن هناك أوجها كثيرة للمقارنة بين هذين الموسيقيين العظيمين ، فكلاهما وُلد فى عام واحد وعلى مقربة من بعضهما ، وبينما كان باخ يعتبر موسيقاه جزءا من صلاته. كان هاندل فى الواقع يمرن مهارته الموسيقية فى مواضيع دينية فهو رجل دنيا قبل أن يكون رجل دين رغم تقواه. لهذا فإن باخ دخل عالم الموسيقى عن طريق الأرغن ،

أمـا هـاندل فـدخلـه عن طريق المسـرح بوجـه عـام. وباخ رغم اهتمـامـه بأعمـال معـاصـريه الأجـانب إلا أنه لم يغـادر ألمانيا وظل ألمانيا أصـيلا ، أما هـاندل فكـان رجـلا دوليا شـاركت فيه على الأقل ثلاثة بلاد ، ألمانيـا التى أعطتـه المولد والصـرامـة والاجتـهـاد فى العمل ، وإيطـاليا التى أعطتـه المران والدُّربة ، وانجلترا التى أمضى فيـها بقية حياته وتجنس بجنسيتـها ، ومن الغريب أن العمى كانِ نهاية هاندل كما كان نهاية باخ. وبينمـا كان باخ يتتبع موسـيقى هـاندل لم يكن هـاندل يعرف شيئاً عن باخ .

قـبل أن نخـتتم حـديثنا عـن هـاندل لابد أن نذكـر كلمـة عن قطعة."المسيا" تلك القطعة التى كتبها هـاندل فى ظروف عسرة أهمـها الإفلاس ، وكـان فى السـادسة والخمسين ، وحيـدا فى العـالم ، يزايله شـبح مرض خطيـر ، فـانـزوى بكبريائـه بمنزله البسيط بشـارع بروك ، كـان رجلا حـزينا يواجـه مسـتقبلا كله فراغ. ومن هذا الصـيف الحزين ، صـيف عام ١٧٤١ أرسل له صـديقـه يننز Yennens منتـخبـات من كـلام الإنجـيل تحت اسم "المسـيا". كـان هـاندل الإنسـان منكسـرا ، لكن هـاندل الفنان استجاب لنداء هذه الكلمـات ، فلابد أن يعبر عنها بالموسيقي. وربما - لأول مـرة - بدأ عـمله من غيـر التـفكيـر فى إرضـاء

الجماهير أو المولين أو الولاة أو الحكام فهذه هي موسيقاه الخاصة ، ولم يغادر منزله لمدة أربع وعشرين يوما ، وكان خادمه يحضر له الطعام وكثيرا وما يعود فيجد أن سيده لم يمس الطعام بل يحدق في الفراغ. وذات يوم بعد أن أتم هاندل القطعة التي تُعرف باسم "هللوياكورس" وجده خادمه جالسا إلى منضدته والدموع تنهمر من عينيه وهو يقول "أظن أني رأيت السماء كلها بل رأيت الله نفسه" ويبدو أن هاندل قد مر برؤيا رائعة كما مر من قبله القديس يوحنا في جزيرة بطمس " وسمعت صوتا عظيما .. يقول : أكتب الأمور التي رأيتها والأمور الكائنة والتي ستكون". فالواقع أن إبداع المسيا في أربعة وعشرين يوما – المسيا التي تُعد من أعظم الأعمال الموسيقية في العالم – لم تكن من إبداع رجل محطم بل من إبداع عملاق يهبط عليه الإلهام .

وحين انتهت أيام الوحي وضع المخطوط الثمين في أحد الأدراج. فلم يفكر هاندل في إخراجه ، لأن لندن كانت قد أعطته أذنا صماء. ولحسن الحظ أتته دعوة لزيارة دبلن بعد أسابيع قليلة من تأليف المسيا ، فلبى الدعوة وهناك عُزفت المسيا لأول مرة أمام جمهور متحمس. وبعد عودة هاندل إلى لندن لم تقبل لندن المسيا مباشرة بل استغرق ذلك بعض

الوقت ، وكـان هـانـدل يعـرف الضـجـة التى سيـثـيرهـا عنوان المسيا ولهذا أسماها "أوراتوريو مقدس" لكن هذه الحيلة لم تعـفـه من هجـمـات رجـال الدين الذين وصـفـوا القطعـة بالتـجديف، لكن عند عرضـهـا لأول مرة ذكـر أن الملك عندمـا كـان يستمع إلى الجملة "لأن الرب القدير على كل شيء يملك For The Lord god Omnipotent Reignethوقف على قدميه فوقف المستمعون جميعهم وظلوا وقوفا حتى النهاية ، ومنذ ذلك الوقت كلما استمع الجمهور إلى الهللويا كورس – وهى التى تحوى هذه الجملة – فإنهم يقفون حتى نهاية المسيا ، وبذلك أصبحت تقليدا إنجليزيا متوارثا. لكن لسبب لا ندريه لم تشتهر المسيا كقطعة موسيقية شعبية بسرعة ، ففى أثناء حياة هاندل كانت تُعزف فى بعض الحفلات الخيرية لصالح مستشفى فوندلنج ، وكان مجموع دخل هذه الحفلات أكثر من ألف جنيه. ومع ذلك فإن المسيا كانت أحب القطع إلى قلب هاندل. ولا يعتبر الإنجليز اليوم المسيا قطعة موسيقية فنية رائعة فحسب بل حدثا وطنيا أيضاً بحيث أن عيد الميلاد الإنجليزى الذى يخلو من المسيا فكأنما يخلو من شجرة عيد الميلاد. إن المسيا هى القطعة الفريدة فى تاريخ الموسيقى باعتبارها المحاولة الأولى لمعالجة مأساة التعبير عن البشر فى

شعر وقصيدة ، فقد تناول البعض حياة المسيح كسلسلة من الأحداث ، لكن ما حدث للمسيح فى أثناء حياته كان بالنسبة لهاندل رموزاً أكثر منها وقائع. فكان يرى فى ميلاده - كما تنبأ عنه العهد القديم - هبة عظمى للبشر ، وكان يرى فى موته وقيامته أمل الإنسانية فى الخلود. فالمسيا كانت بالنسبة لهاندل قصيدة شعرية بل موضوعا سماويا معبّرًا عنه بلغة سلسلة عبر هو عنه بالموسيقى .

ويبدأ الأوراتوريو بافتتاحية حزينة يائسة كأنما تعبر عن عالم خاطئ ، ثم تبدو - كوميض من شعاع الشمس - هذه الكلمات : عزوا عزوا شعبى ، ثم نبوءات الأنبياء بالمسيا. وبعد التنبؤات تنتقل القصيدة إلى بيت لحم على أجنحة لحن ريفى لطيف يقال إن هاندل استوحاه من أيام حداثته حين كان يصغى إلى بعض الرعاة فى شوارع روما أثناء عيد الميلاد. وخلال هذا الانتظار تنبعث أصوات الملائكة معلنة ميلاد المسيح ومغزاه للإنسانية .

والجزء الثانى من الأوراتوريو يقص علينا قصة أحزان المسيح وشجاه وأساه ، ولا يبدو أن الموسيقى تعبر من هنا عن الألم الجسدى بل عن عقيدة الفداء ، ثم يذيع التلاميذ هذه العقيدة المسيحية على العالم الوثنى ، ثم ينتهى هذا الجزء

"بالهللوياكورس" يعلن الانتصار على الخطيئة والموت .

ويبدأ الجزء الثالث بصوت ينشد قائلا : "إنى أعلم أن مخلصى حى IKnow That My Redeemer Liveth، فبعد صيحات التهليل الداوية التى يبدو أنها تخرج من قلوب ضالة امتلأت إيمانا منذ زمن وجيز ، يُقبل هذا الصوت النقى كصيحة إيمان خارجة من الإنسان. إن هذا الجزء كله من الأوراتوريو هو اعتراف بالإيمان ، هو تقبل الإنسان لهبة الخلود. ومن هذا الصوت المنفرد يبنى هاندل موسيقاه حتى تصل قمتها فى "الأمين كورس". إن المسيا أنشوده وليست عظة. ولأن تعبيرها رائع فإنها تسمو بنا وتحملنا على أجنحة فوق كل المحاولات والنظريات البشرية إلى جو من الصفاء الروحي. إن المسيا ليست موسيقى كنسية بل الأصح أنها موسيقى يصل من خلالها المستمع إلى تجربة دينية عميقة .

بعد هاندل:

والواقع أن عبقرية هاندل قد طغت على باقى القرن الثامن عشر كله ، ويتفق أغلب الناس على أن باقى القرن قد أنتج لنا واحداً ممتازاً هو أوراوريو الخليقة لهايدن (١٧٣٥ - ١٨٠٩)، لأن "جبل الزيتون" لبيتهوفن يعد عملا من أعمال الدرجة الثانية. "والخليقة" ليست عملا دراميا كما كان الأوراتوريو

لدى هاندل لكنه كان عملا تصويريا فى جوهره ، فالواقعية الخالصة لتى يطبع بها هاندل الصور كما وردت فى سفر التكوين إنما هى شىء مألوف لدى كل شخص. لكن هذه السذاجة – التى كانت شيئا شاذا بالنسبة لعصر هايدن – لا يجب أن تحجب عنا تصورات هايدن الرائعة ، كما أن عظمة الكورس فى قطع مثل "السماء تخبر" تستطيع أن تقف جنبا إلى جنب مع خير ما أنتجه هاندل. ويجدر بنا أن نشير إلى أن "الخليقة" هو نص مختار من الفردوس المفقود لجون ملتون (١٦٠٨ – ١٦٧٤) كما أن هايدن وضع مؤلفا دينيا آخر على أشعار لجيمس تومسون (١٧٠٠ – ١٧٤٨) وعنوانه "الفصول".

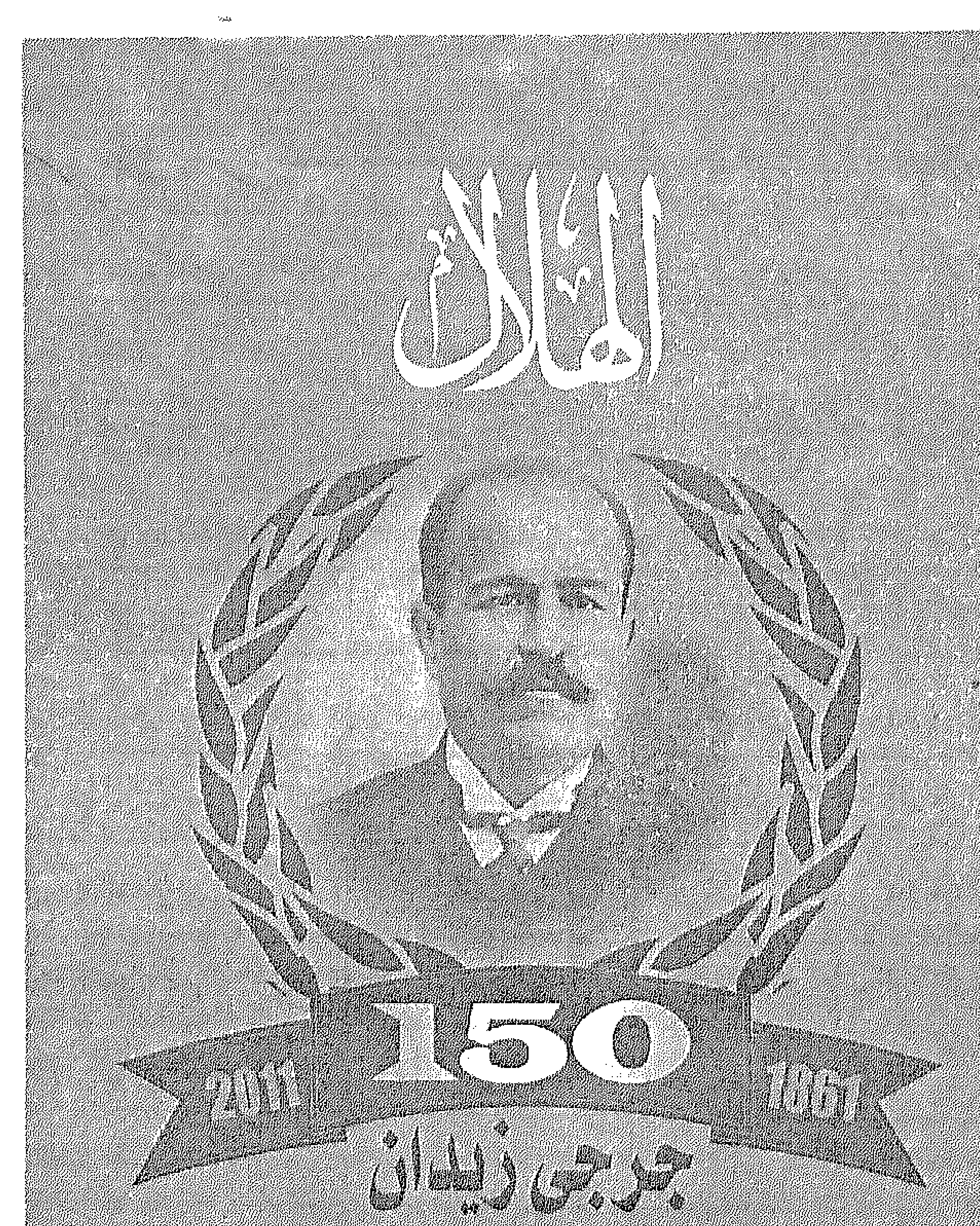
وفى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر كتب مندلسون (١٨٠٩ – ١٨٤٧) أول أوراتوريو له :القديس بولس" الذى جعل منه – لاسيما فى إنجلترا – خليفة هاندل الطبيعي. ويقال إن اهتمام مندلسون. بالأوراتوريو يرجع إلى اهتمامه بنشر أعمال باخ ، لكن ذلك لا يطابق الواقع كل المطابقة فقد كان مندلسون مهمتا كذلك بهاندل ، فالصراع بين كهنة البعل والنبى ، وسقوط المطر فى قطعته "إيليا" يظهر فيها تأثير باخ ، ولو أننا لا نستطيع أن نقول بأن أعمال

مندلسون تقف جنبا إلى جنب مع أعمال هذين العبقريين. وليس معنى ذلك الخفض من عبقرية مندلسون ، لكن معناه أن خير موسيقى وضعها مندلسون لم تكن موسيقى الأوراتوريو، لأن مندلسون لم يكن لديه العمق الدينى الذى كان عند باخ ولا الإحساس الدرامي الذى كان لدى هاندل .

والواقع أن الاهتمام بالموسيقى الكنسية منذ أيام هاندل قد حاول أن يشق له طريقه عن غير طريق الأوراتوريو ، وربما كان القداس الكاثوليكى هو خير طريق له. فموتزارت (١٧٥٩ - ١٧٩١) وهايدن قد ألفا عددا من القداس ذات أهمية بالغة وجمال رائع. ولاشك أن خير ما أنتجته هذه المدرسة هو قداس بيتهوفن "مقام دو كبير" وهو عمل بيتهوفنى ناضج كل النضوج ومن أروع الأعمال الكورالية فى العالم ، يقارنه البعض بالكورس فى الحركة الأخيرة من السيمفونية التاسعة. كذلك ألف برامز (١٨٣٣ - ١٨٩٧) وفيردى (١٨١٣ - ١٩٠١) مجموعات تسمى ريكويم ، والريكويم فى أصله موسيقى القداس الجنائزى بالكنيسة الكاثوليكية. وريكويم برامز ليس فى الواقع إلا وصفا لفقرات من الكتاب المقدس. ويمكن أن يقال الأمر نفسه فى ريكويم فيردى ، فهو ليس عملا دينيا لكنه استفادة عبقرى من عباقرة الدراما من

الكلمات الكنسية للتعبير عن أعمق مشاعر الموسيقار. لهذا فهى تبدو عملا من الأعمال المسرحية ، وهذا ليس دلالة على عدم الإخلاص ، بل قد يكون العكس هو الصحيح .

الفهرس


الهلال
150
2011
1861
جرجي زيدان
احتفالية خاصة بمناسبة مرور مائة وخمسين عاما على ميلاد صاحب الهلال

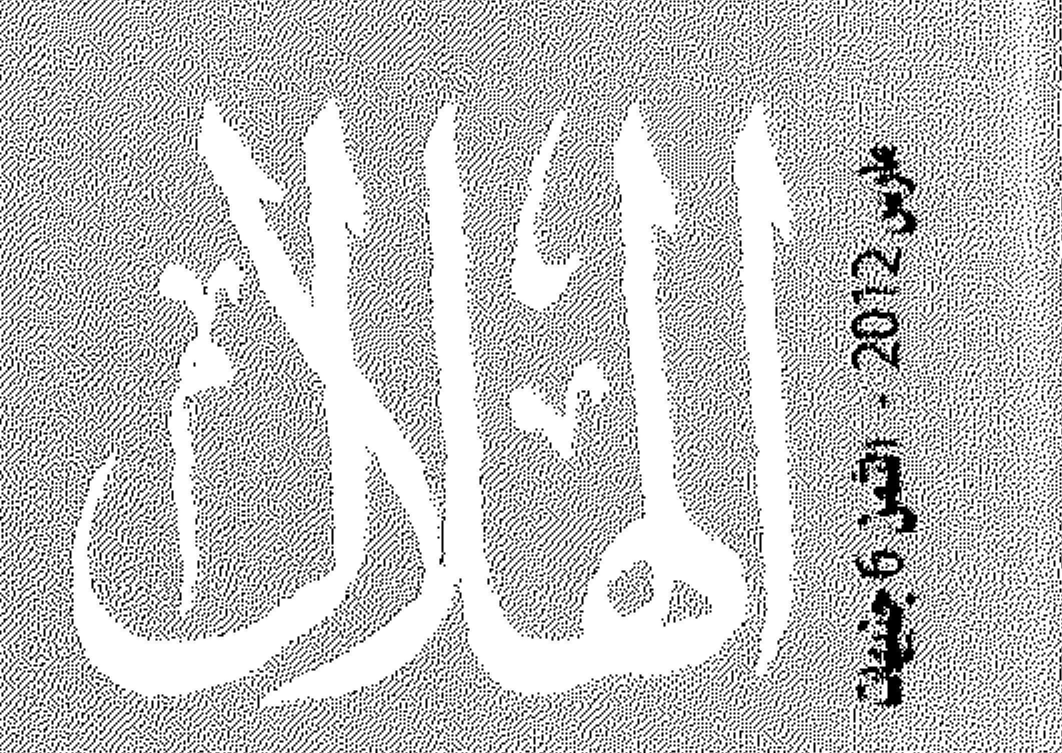
أحدث إصـــــدارات كتاب الهلال عام ٢٠١٢م

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة
شاعر الروابي الخضر	محمد رضوان	فبراير/ مارس	٢٠١١
التحرك فوق رقعة شطرنج	د. محمود سليمان	إبريل	٢٠١١
أشهر الاغتيالات السياسية	د. صلاح جودة	مايو	٢٠١١
أوراق البنفسج	خيري شلبي	يونيه	٢٠١١
اللغة في محراب القدس	د. محمد داود	يوليه	٢٠١١
حقوق الإنسان في السلم والحرب	د.جعفر عبدالسلام	أغسطس	٢٠١١
كتابات غربية	رجائي عطية	سبتمبر	٢٠١١
محمود درويش	عزة بدر	أكتوبر	٢٠١١
الحنين إلي بحرى	محمد جبريل	نوفمير	٢٠١١
عبقرية الحب	د. ايمن تعيلب	ديسمبر	٢٠١١
مداد القلم وثورة يناير	عبد الرؤوف الضبع	يناير	٢٠١٢
ثورة إيران	وليد عبدالناصر	فبراير	٢٠١٢

رقم الإيداع
٢٠١٢/٤٣٢٩
I.S.B.N
977-07-1528-X

هذا الكتاب

هذا كتابى الستون ، يقدم لقطات من رحلتى الفكرية ما بين شبابى المبكر وأنا فى العشرينيات من عمرى : الوجود خطيئة ، حتى الثمانينيات وأنا فى المحطة قبل الأخيرة : تحرير المستقبل من الماضى وتحرير الماضى من المستقبل ، وما بينهما لقطات عثرت عليها متناثرة فى مكتبتى تطالبنى أن أبعثها مع أخواتها لتقدم محطات من رحلة فكرية لمواطن مصرى تنفس القرن العشرين الميلادى وبضع سنوات فى الواحد والعشرين ، وصفحات هذا الكتاب تزعم أن رحلته تجاوزت زمانه وموطنه .



- اللهم أنقذ مصر من الكاذبين
- الشهداء يصنعون التاريخ
- الأزهر.. الشيخ والمشيخة

الديمقراطية وغياب الوعى

ملف خاص